المجلد الخامس عشر ١٧٥، ١٧٦ الجزء ٧ و ٨



أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة سنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

تموز وآب سنة ١٩٣٧ م

ربيع ثاني وجمادى الاولى سنة ١٣٥٦ هـ

دمشق

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي { في سورية ولبنان ١٥٠ قرشاً سورياً
الدفع مقدماً { وفي جميع الاقطار ٤٠ فرنكاً

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

من السنة الاولى ، ثم السادسة الى كل سنة منها	في الداخل	٢٥٠
« السابعة الى الثانية عشرة	«	٢٠٠
« الاولى الى السادسة	في الخارج	٤٠٠
« السابعة الى الثالثة عشرة	«	٣٢٥

مطبعة ابن زيدون * بدمشق

طرائف لغوية

مقتبسة من سيرة « السيد رشيد رضا »
تأليف عضو مجمعنا العلمي الأمير شكيب
أرسلان ، وفي هذا الجزء من المجلة
بيان وتقريظ لهذه السيرة الجليلة .

يقول أمير البيان في حاشية الصفحة ٣٤٦ من هذا الكتاب ما نصه :

« كنت دائماً إذا وجدت في كلام السيد لفظة لا أجد لها أصلاً في اللغة أعترض عليه فيها ، وأسأله عن الوجه الذي عنده في هذه اللفظة ، وكان هو يفعل معي كذلك ، وسنورد جل ما وقع بيننا من المطارحات اللغوية لأن فيها فوائد لطلاب العربية . »

جاء في رسالة للسيد رشيد رضا رحمه الله ص ٣٤٤ ما نصه :

(الدعاية) وردت في كتاب النبي (ص) إلى هرقل قال : « أدعوك بدعاية الإسلام » كما في كتاب « بدء الوحي » من أول صحيح البخاري ، وهي كالدعوة الكثيرة الاستعمال في كل ما يدعى اليه ، فأحببت استعمال الكلمة الطريفة في الدعوة الخاصة بالمذاهب العامة من سياسية ودينية ، واتبعني بها كثير من الكتاب (١) .

وجاء في رسالة أخرى للسيد رشيد ص ٦٩٥ ما نصه :

« سألتني في كتاب سابق عن كلمة دعاية وقد خطرت في بالي الآن فذكرتها

هنا بغير مناسبة لئلا أنساها بعد كما نسيتها من قبل فأقول : انها وردت في أصح الروايات في كتب النبي (ص) إلى الملوك كما تراه في البخاري وغيره ، وأنا الذي روّجتها في الاستعمال ، فهي من شواهد حجتك على الذين ينكرون كل ما لم يرد في كتب المعاجم المتداولة ، ونقل رواة الصحاح من الحديث أوثق من رواة اللغة ، وقد ورد دعاوة بالفتح في دعوة النسب وقلب الواو في الكسر ياء لمناسبة الكسرة ، وهذا القلب جائز لا واجب كما ورد في القوام والقيام » .

وجاء في رسالة أخرى للسيد ص ٦٦٨ ما نصه :

« وأما المنتقد اللغوي فقد ذهب به الادلال بنظرياته إلى الجرأة على ما نقول في الحديث النبوي ، فلفظ الدعاية ثابت في رواية البخاري وفي أصح الروايات ، وهو مقيس ومثله الشكاية من شكا يشكو ، وهو أيضاً منقول في لسان العرب ومستدرك الزبيدي على القاموس (٢) ... هذا وإنني لم أذكر لك أن لفظ الدعاوة قد ورد في اللغة إلا لبيان أن كون أصل المادة واوية لا يمنع قلب الواو ياء لمناسبة كسر أول الكلمة ، وجملة القول أن لفظة الدعاية وردت بأصح الروايات وهي مقيسة . »

وعلق مؤلف هذه السيرة الرشيدية الامير شكيب أرسلان على الرقم (١) من الشذرة الأولى ما نصه :

« نعم قد صار هذا الاستعمال تماماً في معنى ما يسميه الافرنج (بروباغندا) وقد سألت السيد رشيداً عن مصدرها فأجابني بهذا الجواب ، وسألت غيره من علماء الحديث مثل الاستاذ تقي الدين الهلالي المغربي السجلماسي فأيد كلام السيد رشيد ، وقد جاء في لسان العرب خبر هذا الكتاب من النبي عليه السلام إلى هرقل : « أدعوك بدعاية الإسلام » أي بدعوته ؛ ولكنه قال بعدها : وفي رواية « بداعية الإسلام » وهو مصدر بمعنى الدعوة كالعافية والعاقبة ، واقتصر صاحب المصباح على الدعاوة ، ولهذا تمسك بعضهم بأن دعاية قد تكون خطأ نسخ ، وأن أصلها الدعاوة لا يجوز غيرها ، وعللوا ذلك بأن الفعل واوي ، وأن الدعاية بالياء ، والحقيقة أن نسخ البخاري لا تعد ولا تحصى ، فلو كانت الدعاية من خطأ النسخ

لكان العلماء أصلحوها ، ومن المعلوم أن علماء اللغة في المحدثين كحصى البطحاء ، فليس السيد رشيد رضا وحده بالذي روى ذلك ؛ وأما كون الفعل واويا قد يمنع من انقلاب الواو ياء ، ولذلك أمثال كثيرة ، جاء في لسان العرب : سنت السانية تسنو سنواً إذا استقت ، وسناية وسناوة ، وهو في صيّابة قومه وصوابة قومه ، والنقاوة والنقاية من كل شيء ، والنفاوة والنفاية من كل شيء ، وهي النفية والنفوة ، وداهية دهواء ودهياء ، وله غنم قنوة وقنية وقنوان وقنيان ، وأهل العالية يقولون القصوى وأهل نجد يقولون القصيا ، وأتوت به أتاوة وإتاية ، ورغاية اللبن ورغاوته ، وجباية الخراج وجباوته وهو بلو سفر وبلي سفر وهلم جرّا مما لا يحصى .

وجاء في التعليقة الارسلانية على الرقم (٣) من الشذرة الرشيدية الثالثة ما نصه :

« جاء في مخصص ابن سيده صفحة ١٩ من الجزء الرابع عشر ما يلي : وأرى كيف تدخل الياء على الواو ، والواو على الياء من غير علة ، إما لمعاقبة عند القبيلة الواحدة من العرب ، وإما لافتراق القبيلتين في اللغتين ؛ فأما ما دخلت فيه الواو على الياء والياء على الواو لعلة فلا حاجة بنا إلى ذكره في هذا الكتاب لأنه قانون من قوانين التصريف ، قال الأصمعي : سألت المفضل عن قول الأعشى :

لعمري لمن أمسى من القوم شاخصاً لقد نال خيصاً من عفيرة خائصا

فقلت : ما معنى خيصاً خائصاً ؟ فقال : أراه من قولهم : فلان يخوّص العطاء في بني فلان ، أي يقلله » فكأنّ خيصاً شيء يسير ، ثم بالغ بقوله : خائصاً كما قالوا موت مائت ؛ قلت له : فقد كان يجب أن يقول : لقد نال خوصاً إذ هو من قولهم : هو مخوّص العطاء ، فقال : هو على المعاقبة ، وهي لغة لاهل الحجاز وليست بمطردة في لغتهم ، وأنا أذكر منها بحسب ما يحضرني إن شاء الله . قال ابن السكيت : أهل الحجاز يسمون الصوّاغ الصياغ ، قال : ويقولون المياثر والمواثر ، والمواثق والمياثق (وأخذ يورد من الأمثال) المتأوّب والمتأيب

وشيطه وشوّطه ، وقد دوّخوا الرجل وديخوه ، وقد فاد يفود ويفيد في الموت ، وعار يعور ويعير إذا ذهب ههنا وههنا ، وغارني الرجل يغيرني ويغورني إذا أعطاك الدية ، وقد تحيزت وتحوّزت ، وتوّهت الرجل وتيهته ، وطوّحته وطيحته ، وماهت الركية تموه وقد قيل تميه وتماه ، ويقال طال طولك وطال طيلك ، وضاره يضيره ، وزعم الكسائي أنه سمع بعض أهل العالية يقول : لا ينفعني ذلك ولا يضورني ، وأن فلاناً لسريع الأوبة وقوم يحوّلون الواو ياء ، فيقولون سريع الأيبة ، وقوم يقولون : لاته يليته ولغة أخرى يلوته ، إلى أن يقول :

تبوّغ الدم بصاحبه غلبه ، وفي الحديث : إذا تبيّغ الدم بصاحبه فليحتجم وما أعيج من كلامه بشيء ، وبنو أسد يقولون : ما أعوج بكلامه ، ويقال : هو من صيابة قومه وصوّابة قومه ، وثور وثورة ونيرة ، وقد تصيّح البقل إذا هاج وتصوّح ، وتصيّع وتصوع وأقاوم وأقايم ، وتهير الجرف وتهور ، وفاحت ريحه تفيح فيحاً وفاحت ريحه فوحاً ، والطوع والطيع ، ويقول بعضهم : حكوت عنه الكلام أي حكيت ، وطما الماء يطمي ويطمو ، وكذلك ينحي وينمو ، ومقا الطست أي جلاها يقوها ويمقيها ، وقد نثوت الحديث ونثيته ، وفليت رأسه بالسيف وفلوت ، وفأيت وفأوت ، وداهية دهياء ودهواء ، وغنم قنوة وقنية ، والنفاوة من كل شيء خياره ، والنفاية والنفاوة ، وعزيته إلى أبيه وبنو أسد يقولون : عزوته الى أبيه ، وحثيت عليه التراب وحثوته ، وما كان مرضياً ومرضواً ، وأهل العالية يقولون : القصوى وأهل نجد يقولون القصيا ؛ وحكى الفراء عن الكسائي : سناها الغيث يسنوها فهي مسنوّة ومسنية ، وسحوت الطين عن الارض وسحيته ، وقد أتوتُ به إتاية وأتاوة ، ورثوته ورثيته ، ورغاية اللبن ورغاوته ، ومحوت أمحو ومحيت أمحي ، وجبوت الخراج وجبيته جباوة وجباية ، وطغوتَ يا رجلُ وطغيت ، وهذوت وهذيت ، ولحوت العصا ولحيتها وطهيت اللحم وطهوته ، وقد صفوتَ وصفيت ، ولغوت ولغيت ، وعلوت وعليت وسلوت وسليت . اهـ باختصار .

ولم يذكر الفيروزابادي إلا السعاوة بالواو ؛ ولكنه ذكر أن دعيت لغة في

دعوت ، وذكر الزبيدي فيما استدركه على القاموس دعاية الاسلام بكسر أوله وهي دعوته .

وقد أعاد الاستاذ الرشيد طبع « آخر بني سراج » في مطبعة المنار ، وهي رواية شاتوبريان المشهورة التي كان الأمير شكيب قد عرّبها في شباب آدابه ، فعثر السيد رشيد على بعض ألفاظ وتعابير لم يرض نسبتها إلى أمير البيان فأرسل إليه رسالة لغوية مطولة ص ٣٨٣ نقتصر منها على ما يلي ص ٣٨٥ :

« النوع الثاني ما هو من الاصل وسببه في الاكثر كثرة استعمال المعاصرين وهو قسمان : أحدهما المفردات والثاني الجمل والأساليب ، فمن المفردات قولكم : الخطر المحيق (هذه وقعت سهواً) ، والصواب في مثله الثلاثي كقوله تعالى : (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) وقوله : (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) ويعدى حاق بالهمزة فيقال : حاق به السوء وأحاق الله به .

ويشبهها قولكم : ضجة مهولة ، وإنما يقال : هاله الأمر أو الخطب ، وفي الأساس : أمر هائل وهوّل الأمر جعله هائلا ، ثم في مجازه : مكان مهول أي فيه هول ، ولا يظهر مثله في وصف الضجة ، وإنما صححت مثل هذا مع علمي باحتجاجكم أو إمكانه بمثل « مكان مهول (١) »

ومنها قولكم : (إن هذا لنبأ عظيم) وهنا غيرتُ الموصوف فقلتُ : الخطب عظيم ، لان النبأ خاص بالكلام ، وليس المقام مقام كلام بل مقام وصف ابن سراج لأرقه وذله .

ومنها (ارتياد التعاشيب) والتعاشيب نص في مرادكم فإنها النبذ المتفرقة من العشب ، وأظن أن هذه من غلط الطبع ، وإلا فهي من سبق القلم ، والاول أرجح ، فإن الكلمة من الفرائد غير المستعملة عند ضعفاء الكتاب الذين جنوا على جهابذتهم (إنما كتبتها تعاشيب وأردت أن أحيي بها كلمة فصيحة مجهولة تقريباً عند ضعفاء الكتاب .)

الثاني : الجمل والأساليب ، وما استنكرته من هذا القسم أكثر من غيره وقد كاشفتكم بشيء منه قبل الشروع في الطبع ، فعلمتم مما رجعتم إليّ من القول فيه : ان بعض ما هو قطعي عندي أو قريب من القطعي مما يترجح أو يمكن أن يكون موضع بحث وجدال طويل عندكم ، فصححتُ ما رجحت أو جزمت باستحسانكم لتصحيحه إن لم يكن لاعتقادكم بأنه خطأ أو غير فصيح فلاعتقادكم بأن بدله صحيح فصيح أو أنه أفصح ، وأذكر بعض الأمثلة على هذا القسم غير مرتبة :

(١) قولكم : (ومرت الفلك بريح طيبة) استبدلت به (وجرت الفلك به بريح طيبة) ووجهه أن السرى خاص بما كان في الليل ، ولا محل لهذا التخصيص ، وان ما ذكرته موافق لقوله تعالى : (وجرين بهم بريح طيبة) وقد خطر ببالي أنكم أردتم استعمال أسلوب القرآن فلم تتذكروا الآية ، وقد راجعت أستاذنا (الشيخ محمد عبده) مرة في كلمة كتبها في مقالات الإسلام والنصرانية مخالفة لاستعمال القرآن وهي صواب في نفسها ، وكانت المراجعة كتابية فكتب إليّ بأن أصححها أو أغيرها ، وعلّل ذلك بأنه لا يجب مخالفة أسلوب القرآن ولو إلى صواب ، والكلمة المذكورة « نصح له » أو « وهب له » لا أتذكر أيهما الآن .

(٢) مثل (وما هو ذلك القصر) ، وهذا مما يكثر في كلام المعاصرين وهو مأخوذ من اصطلاح المناطقة في السؤال عن ماهية الشيء ، وكلمة الماهية مشتقة منه ، وهو من اصطلاحهم وقلدهم كثيرون والضمير فيه (هو لا حاجة اليه ولا مرجع له) والمدققون من الكتاب ومصححي الانشاء في وزارة المعارف يتحامونه ويزمّجون الضمير مما يصححون ، وفي الكتاب العزيز : (قال وما رب العالمين) .

(٣) قولك : (ولذلك فإنّ بقايا آياته) وفيه ان ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها ، وان الجمع بين لام التعليل وفاء السببية لا حاجة اليه في أكثر هذه الاستعمالات

التي كثرت جداً في اسلوب المعاصرين غير المدققين ، والوجه في الجمع بينهما تقديم الفاء كأن يقال : فلذلك يقال كذا .

(٤) كلمة (فضلا عن كذا) في مقام الاثبات ، وقد تكرر في كلامكم لانه صار من الاستعمال المألوف عند العلماء منذ قرون ، ولكن المتقدمين قلما يستعملونه الا بعد النفي ، لما لهم من التخريج النحوي له مع تصريح بعضهم بأنه ليس من كلام العرب ؛ فتقدير الكلام في (فلان لا يملك درهماً فضلا عن دينار) : أنه فقد ملك درهم فقداً فاضلا وزائداً عن فقد ملك دينار الخ ... ولا بد ان تكونوا اطلعتم على هذا ونسيتموه ، ولا سيما عند الاستعمال فحريتم على ما تقرأون دائما في الكتب والجرائد ، وكم وقعت أنا وغيري في مثل هذا ، ومنه قولكم في كون المسلمين أحوج من النصارى الى الماء : (لانه فضلا عن الشراب يلزمهم لاجل الوضوء) فبمَ تنصب كلمة فضلا هنا ؟

واستعمال (يلزمهم) هنا بمعنى يحتاجون اليه لا أعرف له أصلا في اللغة ، وإنما هو عصري حديث ، ولكن لا ادري متى كان استعماله ، ولعلكم تعرفون له اصلا فانني لم أراجع عنه باستقصاء ؟

ومنه قولكم في وصف غناء أو ماء (وتجود بكل نغمة يترنح لها الجلمود فضلا عن كون الموسيقى الاسبانية في طبيعتها ما اشتملت عليه من كذا وكذا تفعل كذا وكذا) فيجوز ان تكونوا اطلعتم على تخريج يرضيكم لمثل هذا الاستعمال ، ويجوز أيضاً ان تكونوا قد اطلعتم على نص فيه لم نطلع عليه نحن ، ولا مثل أبي حيان الاندلسي الذي بحث ما لم نبحث ؛ ولكن ما أظن انه يسخطكم تغيير هذا الاستعمال أنا وأمثالي مما لا تنكرونه بدليل انكم قرأتموه ولم تعدوه خطأ ، على أني لا اتذكر أني غيرت هذا الاستعمال في كل مكان ، وإنما عرفت هذين الموضعين لانهما مما كنت وضعت عليه علامات الاستنكار .

(٥) يقرب من هذا الاستعمال مثال قولكم : (ولكن كأني بهذا الطريق بدلا عن أن يزداد بهم حركة وأنساً ازداد وحشة ووحدة) وقولكم (ولكن وا أسفاه بدلا من قرع الطبول لم يكن حول ابن حامد إلا السكوت التام)

فيقف الذهن هنا في (بدلا) المنصوبة حتى يجيء ما بعدها فيلتمس لها ناصباً بالتقدير في الكلام ، وبتأخيرها معما يتعلق بها يزول هذا التعقيد ، ومن الخطأ في الجملة الاولى وضع (عن) مكان (من) والمنقول (بدل منه) كما في الجملة الثانية ، وربما كانت الاولى من غلط الطبع ، والمعاصرون يستعملونها .

(٦) ومثله فيما تقدم وحقه التأخير قولكم (وأصلحته تزيد رونقا وجلالا صباحةَ وجهه) فصباحة وجهه مفعول أول ، ورونق مفعول ثان ، وتقديمه خلاف الاصل ، فلا ينبغي الا لضرورة شعر او نكتة من نكت المعاني ، وانا أعتقد انك اذا لم توافقني الان على هذا فعلته انك ألفت قراءة هذه الرواية لانها من أوائل ترجمتك ، بل أعتقد انك لولا هذه الالفة لصححت منها عند قراءتها الاخيرة الفاظاً وجملاً كثيرة مما لا تراك تستعمله الان ، واعيد التذكير بأن المراد تصحيح ما ينافي الفصاحة والبلاغة لا ما ينافي قواعد الاعراب ومفردات اللغة فقط .

(٧) قولك (ثم تحفزوا وتواثبا الواحد على الآخر) ولا يعزب عنك ان معنى تواثبا وثب احدهما على الآخر ، فلا حاجة معها الى قولك : الواحد على الاخر .

(٨) ومثله (وصاروا يتظاهرون بعضهم على بعض) وهو ما يسمونه لغة البراغيث والفصيح يتظاهر بعضهم على بعض .

(٩) وأبعد منها عن الفصاحة بل عن الصواب قولك : (وبقيت سرايا الفريقين تتردد الى غزو بعضها بعضاً ، فانه من عدوى الجرائد وأمثالها من مكتوبات المعاصرين التي لا تقبلها لغة البراغيث وبتجنبها من دونك من الكتاب المتأنقين .

(١٠) وأتذكر ان مما تكرر وهو لا يرضيك الان مثل (نحو ثلاثمائة) باضافة نحو الى العدد ، والمنقول عن الفصحاء (نحو من كذا) فان وجد ناقل للاول فلا اذكره ولا أجد وقتاً للمراجعة الطويلة وحسبي من القصيرة اقتصار أساس البلاغة على قوله : وعنده نحو من مائة رجل .

(١١) قولك : وكانت المقبرة عبارة عن روضة معروشة من النارنج والسرو والنخيل ، كلمة (عبارة) خاصة بالكلام ، واستعملها كثير من علمائنا في تفسير بعض الكلم أو تعريف بعض الاصطلاحات اللفظية ، وأنكر هذا بعض اخواننا

من نظار المدارس في احدى جلسات المجمع اللغوي تصويب كلامه في مثل هذا الاستعمال الذي يكثر في الجرائد وأمثالها فقط ، وفي العبارة ايضاً ان المعروش من الشجر والنجم ما كان كالدوالي ، وغير المعروش ما كان كالصنو والنخيل، وهو ما حققناه في تفسير « جنات معروشات وغير معروشات »

(١٢) قولك : (ان يصلح ذات البين بين الفرسان) الوجه ان يقال : ذات بين الفرسان بالاضافة فقط كما قال تعالى :« واصلحوا ذات بينكم » .

(١٣) قولك في حث البغال وزجرها : (بأن يناديها تارة يا جيدة يا ضربعة ، او ان يزجرها طوراً بقوله عدس ، لا حاجة هنا (لأو) ولا (لأن) فالمقام مقام مقام الواو وحدها .

هذا بعض ما بذلت من الاجتهاد في تصحيح كتاب أجل اصدقائي فضلاً وادبا ووطنية وخدمة للامة من طريق المساعي السياسية ونفثات اليراع، الى ان يقول : وما جريت معك في هذا الا على الطريقة التي استقمت عليها في معاملة شيخنا الاستاذ الامام في عهده وبعد عهده ، فقد كنت اراجعه في حالة القرب بما أرى انه يحتاج الى اصلاح لفظي او معنوي من كلامه فيسر بذلك جد السرور ويعمل به ، وكنت اصحح في حالة البعد ما أقطع بأن تغييره اولى ، وقد علقت على رسالة التوحيد حواشي لا تخلو من تخطئة الاصل ، وقد اذن لي بتصحيح خطابه الذي ألقاه في تونس بعد ان طبع فيها مصححاً بقلمه ، ولم يبال ان يرى علماء تونس وادباؤها ان ما طبع في المنار اصح مما طبع عندهم ، فقد كانت هذه المعاملة من استاذنا الاكبر في الانشاء وعلوم البلاغة سببا في تمكن تلك العادة التي اشار اليها سيدي الامير ، واعترفنا له مع ذلك بالحق فيما انتقده منها ...

هذا بعض ما جاء في هذه الرسالة اللغوية الطويلة ، وقد راجع الأمير صديقه الرشيد في كثير من تصحيحاته ، منها لفظة مهول فقد علق عليها بقوله : « كلا لم نجز لفظة مهول لأجل قولهم مكان مهول ، بل لورود مهول في الكلام العربي . جاء في لسان العرب : وهول هائل ومهول ، وكرهها بعضهم وقد جاء في الشعر الفصيح وقال :

ومهول من المناهل وحش ذي عرافين آجن مدفان

وتفسير المهول أي فيه هول ، والعرب إذا كان الشيء « مُهولة » أخرجوه على فاعل مثل دارع ذي الدرع ، وإن كان فيه أو عليه أخرجوه على مفعول كقولك مجنون فيه ذاك ومديون عليه ذاك اه وقد قال بديع الزمان الهمذاني لأبي بكر الخوارزمي في المناقشة التي جرت بينهما مرتجلاً :

أراك على شفا خطر مهول بما أودعت لفظك من فضول

وبديع الزمان يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه

وناقشه الأمير في عبارة (وما هو ذلك القصر) بقوله : لا شك أن القاعدة هي ما قال ، ولكن ليس بخطأ أن يقال « ما هو ذلك القصر » وما في ضربه ، وقد ورد كثيراً في كلامهم وذكر سيبويه أن هذه الضمائر : أنت وأنا ونحن وهو وهي وهم وهن وأنتن وهما وأنتما وأنتم تأتي وصفاً للمضمر المجرور والمنصوب والمرفوع وذلك قولك مررت بك أنت ورأيتك أنت وانطلقت أنت ، وليس وصفاً بمنزلة الطويل إذا قلت مررت بزيد الطويل ، ولكنه بمنزلة نفسه إذا قلت مررت به نفسه وأتاني هو نفسه ورأيته هو نفسه ، وإنما تريد بهن ما تريد بالنفس إذا قلت مررت به هو (إلى أن يقول) : واعلم أن هذا المضمر يجوز أن يكون بدلاً من المظهر وليس بمنزلته في أن يكون وصفاً له لأن الوصف تابع للاسم مثل قولك رأيت عبد الله أبا زيد ، فأما البدل فمنفرد كأنك قلت زيداً رأيت أو رأيت زيداً ثم قلت إياه رأيت وكذا أنت وهو وأخواتها في الرفع . وأورد سيبويه قوله تعالى « ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم » وقال : صارت « هو » هنا بمنزلة ما إذا كانت لغواً في أنها لا تغير ما بعدها عن حاله قبل أن تذكر ، واعلم أنها تكون في إن وأخواتها فصلاً وفي الابتداء ولكن ما بعدها مرفوع لأنه مرفوع قبل أن تذكر الفصل (قال) : واعلم أن « هو لا يحسن أن تكون فصلاً حتى يكون ما بعدها معرفة أو ما أشبه المعرفة مما طال ولم تدخله الألف واللام (قال) : وقد جعل ناس كثير من العرب « هو » وأخواتها في هذا الباب اسماً مبتدأ وما بعده مبني

عليه ، فمن ذلك أنه بلغنا أن رؤبة كان يقول أظن زيداً هو خير منك وناس كثير من العرب يقولون (وما ظلمناهم ولكن هم كانوا الظالمون) وكان أبو عمرو يقول : إن كان لهو العاقل ، ثم يقول سيبويه إن « هو وأخواتها » يكون بمنزلة اسم مبتدأ وذلك قولك ما أظن أحد خير منك وما أجعل رجلاً هو اكرم منك ، فلم يجعلوه فصلاً وقبله نكرة كما أنه لا يكون وصفاً ولا بدلاً لنكرة وكما أن كلهم وأجمعين لا يكرران على نكرة فاستثقلوا أن يجعلوها فصلاً في النكرة كما جعلوها في المعرفة لأنها معرفة فلم تصر فصلاً إذاً لمعرفة كما لم تكن وصفاً ولا بدلاً إلا لمعرفة اه

وقد جاء في مغني اللبيب لابن هشام أن « ما » نكرة متضمنة معنى الحرف وأن « ما » الاستفهامية معناها أي شيء نحو : ما هي ؟ ما لونها ؟ وما تلك بيمينك ؟ قال موسى : ما جئتم به السحر وذلك على قراءة أبي عمر وآلسحر بمد الألف فما مبتدأ والجملة بعدها خبر ، وآلسحر إما بدل من ما ولها قرن بالاستفهام وكأنه قيل آلسحر جئتم به ، وإما تقدير أهو السحر أو السحر هو ، ويقويه قراءة عبد الله ما جئتم به سحر ؛ إذاً لو قيل ما هو السحر مثلاً « فما » مبتدأ والجملة بعدها خبر والسحر بدل من ما ، وقد سألت عن هـذا الاعتراض العلامة السيد تقي الدين الهلالي السجلماسي فاستغرب وقال لا أظن أن السيد رشيداً يمنع جوازه كما أنه لم يتبين لي أن الجملة منافية للبلاغة وقال : ما هو ذلك القصر . الضمير يعود على القصر وإن كان متقدماً لفظاً فهو متأخر رتبة لأن « ذلك » مبتدأ والقصر بدل وجملة « ما هو » خبر ووجب تقديمها من أجل ما الاستفهامية .

وأما إنكار السيد رشيد على الأمير قوله (ولذلك فإن بقايا آبائه) بحجة أن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها وأن الجمع بين لام التعليل وفاء السببية لا حاجة اليه وأن الوجه تقديم الفاء كأن يقال : فلذلك كان كذا ، فقد رده الأمير مستدلاً على صحة قوله ص ٣٩٠ بما نصه : « إن هذا الاستعمال وارد من القديم حتى في كلام سيبويه نفسه ففي الكتاب صفحة ٣٩٠ من الجزء الأول يقول : فعلى هذا فأجر ذا الباب . وفي الجزء الأول أيضاً صفحة ١٨٩ : فعلى

هذا فقس المعرفة . وفي الجزء الثاني صفحة ٩٧ : فكذلك نقس هذه الأشياء ، وفي صفحة ١٦٧ : فعلى هذا فقس هذا النحو ، ومثله ما لا يحصى في كلام أئمة اللغة قديماً وحديثاً ، وابن هشام وهو من هو في النحو يقول في الصفحة الخامسة من الجزء الثاني من مغني اللبيب الذي عليه حاشية الأمير : وعلى هذا فلا يصح استئناف ما الخ ... وقال في الآية الكريمة « وما بكم من نعمةٍ فمن الله » الأرجح أنها موصولة وأن الفاء داخلة على الخبر لا شرطية والفاء داخلة على الجواب اه ، وقال الله تعالى : (والذين كفروا فتعساً لهم) .

وأنكر رحمه الله على الأمير استعماله في مقام الإثبات (فضلاً عن كذا) فرد إنكاره بقوله : إن استعمال (فضلاً عن كذا) بمعنى زيادة عن كذا مستفيض في كلام المؤلفين والكتاب من زمن قديم كما يعلمه كل من تتبع كلام القوم ، وإن كنا لم نعرف متى بدأ هذا الاستعمال ؟ وقول ابي حيان الاندلسي انه ليس من كلام العرب لا يدل على عدم جوازه لاننا لو تقضنا كلام المؤلفين من بعد الاسلام الى اليوم لوجدنا فيه ما لا يحصى من الاستعمالات التي لم يكن يعرفها العرب ليس في الامور العلمية والفنية والمواضيع الفلسفية فحسب بل في الامور المعتادة الاجتماعية ايضاً ، فقد استعمل العرب بعد الاسلام جملا وألفاظاً لا يأخذها الاحصاء ، لو نشر عرب الجاهلية والقيت على أسماعهم لم يفهموها ولا عرفوا المراد منها حتى انهم قالوا ان بدوياً سئل عن القلم فلم يفهم معناه فقيل له : ماذا تتصور من كلمة القلم ؟ فقال : أتصور انه شيء يقطع أو يقلم ولا أقدر أن أفهم شيئاً وراء ذلك . وبقي العرب بعد الاسلام بكثير يتحامون كثيراً من الاصطلاحات قال سيبويه في باب الجموع : إعلم انه ليس كل مصدر يجمع كالاشغال والعقول والحلوم والالباب ألا ترى انك لا تجمع الفكر والعلم والنظر .اه. فتأمل الآن لغة عربية لا يجوز فيها جمع العلم والفكر والنظر ... والحال انه لا يكاد الكاتب ينحو بضعة

استطار حتى يضطر الى ذكر العلوم والافكار والانظار وهي مستفيضة في النظم والنثر فقولهم (فضلا عن هذا) زيادة على هذا لان الفضل هو زيادة ،وقد رأيت في بعض كتب المتقدمين قوله : فضلا عن كذا وزائداً على كذا . نعم ان اكثر استعمال فضلا عن كذا يجيء بعد نفي ، ولكن قولهم ان ذلك في الاكثر صريح بأنه قد يجيء ايضاً بعد ايجاب ، والسيد رشيد رحمه الله قبل ان كتب الينا هذا الاعتراض قرأ ما جاء في « المصباح » فانه يقول : لا يملك درهما فضلا عن دينار وشبهه معناه لا يملك درهماً ولا ديناراً وعدم ملكه للدينار أولى بالانتفاء وكأنه قال لا يملك درهماً فكيف يملك ديناراً وانتصابه على المصدر والتقدير فقد ملك درهم فقداً يفضل عن فقد دينار . وقال قطب الدين الشيرازي في شرح المفتاح : إعلم ان فضلا يستعمل في موضع يستبعد فيه الادنى ويراد به استحالة ما فوقه ولهذا يقع بين كلامين متغايري المعنى وأكثر استعماله ان يجيء بعد نفي . وقال شيخنا ابو حيان الاندلسي نزيل مصر المحروسة أبقاه الله تعالى : ولم أظفر بنص على ان هذا التركيب من كلام العرب وبسط القول في هذه المسألة وهو قريب مما تقدم . اه .

وقد نقل الزبيدي في شرح القاموس ما ورد في المصباح عن قضية (فضلا عنه) أما سؤال الاستاذ عن اعراب فضلا في قولي (لانه فضلا عن الشراب يلزمهم لاجل الوضوء) فأجيب بأنه منصوب على المصدر مثل قولهم لا يملك درهماً فضلا عن دينار ، وتخريجه ان الماء يلزم المسلمين لاجل الوضوء لزوماً فاضلا عن لزومه للشرب . أما استعمال (يلزمه) (ويلزم له) فهو ايضاً مستفيض اكثر من استفاضة الاول ، ومعنى لزم ثبت ودام وكأنهم لحظوا ان ما يحتاج اليه الانسان بصورة دائمة يعد من الامور اللازمة أي التي يحتاج اليها الانسان لزاماً فصار هذا الاصطلاح يفيد معنى الاحتياج ولو لم يكن كذلك في الاصل . وقد سألت العلامة السيد تقي الدين الهلالي المتقدم الذكر عن جملة : (لانه فضلا عن الشراب يلزمهم لاجل الوضوء) فأجاب : الذي يظهر لي أن هذا جائز وان نصبه على المفعولية المطلقة كما ذكرتم

سائغ (قال) وبدا لي وجه آخر في نصبه وهو أن يكون حالا بمعنى فاضلا من فاعل يلزم وتقديم الحال جائز . قال ابن مالك :

والحال ان ينصب لفعل صرفا او صفة اشبهت المصرّفا

فجائز تقديمه وهو هنا كذلك فان (يلزم) فعل متصرف ؛ واما كون المصدر حالا فكثير قال ابن مالك :

ومصدر منكر حالا يقع بكثرة كبغتة زيد طلع

وفي ذلك خلاف معروف .

وراجع الامير في استعماله مثل (نحو ثلاثمائة) باضافة نحو الى العدد لان المنقول عن الفصحاء (نحو من كذا) ، فأجابه الامير بما يلي : متفق على ان الافصح ان يقال « نحو من كذا » ولكن ليس بغلط إن قيل نحو كذا وقد رأيت هذا الاستعمال في كتاب سيبويه وليس مرة واحدة فقد جاء في الجزء الثاني صفحة ٢٣٥ من طبعة الكتاب في باريز ما يلي : وقالوا نظير كما قالوا وسيم فبنوه بناء ما هو نحوه في المعنى . وجاء في صفحة ٢٣٦ من الجزء الثاني : وما كان من الصغر والكبر فهو نحو من هذا وجاء في صفحة ٣٣٥ : وقالوا ضخم ولم يقولوا ضخيم كما قالوا عظيم ثم قال في الصفحة التي تليها : وقد يبنون الاسم على فعل وذلك نحو ضخم وفخم وعبل وجهم اه ، ثم يقول : فهذا يدلك على انه نحو الطويل والقصير ، إذاً يجوز الوجهان ووضع (من) بعد (نحو) هو أولى . وسألت صاحبنا السيد الهلالي وهو الغاية البعيدة في النحو واللغة عن هذه المسألة فقال لي : نعم الافصح العربي الخالص (نحو من ثلاثمائة) ، واما المؤلفون من عهد سيبويه الى الان والشعراء فانهم اكثروا من ذلك ، والنحو من معانيه المثل كما هنا فلا إشكال في جوازه . اه .

وسألته أيضاً عن بقية اعتراضات السيد رشيد رحمه الله فقال : (بدلا من قرع الطبول الخ) يظهر لي ان السيد إنما اعترض هنا من جهة البلاغة وكان يدقق فيها كثيراً ، واما الجواز فلا أراه ينكره وأمر ذلك سهل إذ لا يخلو انسان ان يوجد في كلامه خلاف الاولى من جهة البلاغة . (قال) : واسلحته تزيد رونقاً وجلالاً صباحة وجهه) هذا الاعتراض ايضا من جهة البلاغة بلا شك

ويظهر لي أن الصواب فيه مع السيد رشيد لأن ركاكته بادية ولست أمنعه وما أجبتم به فيه أن استجلاب الفكر لصباحة الوجه أتم وأولى . (قال) : « وبقيت سرايا الفريقين تتردد إلى غزو بعضها بعضاً » جائز وليس هو من لغة الجرائد لأن لغة الجرائد ولغة عامة مصر أن يقال مثلاً : « وبقيت السرايا تتردد على غزو بعضهـا » نعم لا تخلو تلك العبارة من ركة ولو قيل : « وبقيت السرايا يغزو بعضها بعضها » كما قال تعالى : (وتركنا بعضهم يموج في بعض) لكان أولى اه .

وقد ختم الامير هذه المناقشات بقوله : تقدم لنا كلام في أننا ترجمنا هذا الكلام ترجمةً عن الإفرنسية من أربعين سنة وراعينا فيه الترجمة الحرفية .

ويعثر قارئ السيرة الرشيدية في غير حواشي الرسائل على فوائد لغوية يحسن بنا نشرها إتماماً لهذه الطرائف الممتعة ، منها ما جاء في ترجمة السيد رشيد رضا لنفسه وفيهـا ألفاظ عامية يرويها السيد على سبيل الحكاية كلفظة (تعبان) ص ٢٧ ، قال الأمير معلقاً عليها ما نصه :

روى الأستاذ هنا لفظة (تعبان) على الحكاية ، والا ففي الصحيح لا يقال تعبان ، بل هو تعِب ومُتعَب على وزن كتف ومكرم ؛ وعلق على لفظة « البخشيش » التركية أنها مصدر « بخش ابتمك » أسي أعطى ، ومقابلها في العربي « الحلوان » أو ما يعطى للخادم « النُّحل » والنحلان بالضم ، وتأمل هنا أيضاً مشرب الشيخ رشيد رحمه الله في نقل الأخبار على علاتها .

وعلق الأمير على لفظة (صادرت) الواردة في كلام السيد ما نصه :

جاء في لسان العرب : ومن كلام كتّاب الدواوين أن يقال : صودر فلان العامل على مال يؤديه أي فورق على مال ضمنه . وهكذا نقل ذلك صاحب « أقرب الموارد » بلفظ « فورق » ولكن هذه العبارة نفسها منقولة في التاج بلفظ « قورق » بالقاف أولاً وهي في التاج غلط طبع أو نسخ إذ لا معنى « لقورق » هنا ؛ وأما « فورق » فهو للمجهول من فارقه

من حسابه على كذا إذا قطع الأمر بينه وبينه على امر وقع عليه اتفاقهما ومثله صادره على كذا ، وكله مولد ليس من كلام العرب الأُلى . وقد جاء في تاريخ الوزراء تأليف أبي الحسن الهلال المحسّن بن إبراهيم الصابي الكاتب المتوفى للسنة الثامنة والأربعين بعد الأربعمائة قوله في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات : « وصودر على مائة وعشرين ألف دينار وصح منها ستون فجيء به من محبسه الخ ... وقوله عن لسان الخليفة المعتضد في ابن الفرات أبي الحسن وأخيه أبي العباس : أسأنا اليهما وصادرناهما . وقوله في موضع آخر : وسلم اليه عليّ بن عيسى ومحمد بن عبدون فاعتقلها في دار بدر اللاني وقرر عليهما مصادرة خففها عن علي بن عيسى وثقلها على محمد بن عبدون لعداوة كانت بينهما ، وهكذا هذه اللفظة تدور كثيراً في أخبار ديوان الخلافة .





أثر الرحلة في الحياة العلمية والادبية (١)

يكثر الراحلون من بلاد إلى اخرى ، والغاية من هذه المحاضرة النظر في رحلات أهل العلم والادب لنعرف كيف يكون للرحلة أثر عظيم في ترقية العلوم والآداب ، وتهذيب النفوس وإصلاح حال الاجتماع .

ولعل قائلاً يقول : إن فائدة الرحلة قد عرفها الناس على اختلاف أصنافهم وتفاوت طبقاتهم فهي من المعلومات الموضوعة على ظاهر اليد ، والحديث عنها صرف للوقت في غير جدوى فأقول : إني في شك من هذا ، فإن كثيراً ممن وهبهم الله القدرة على الرحلة وهيأ لهم وسائلها لا يقبلون عليها وينصرفون عنها ، انصرافهم عن الاشياء التي يرونها خالية من كل فائدة .

على أني أريد التنبيه لما في الرحلة من آثار صالحة لأضعها أمام نشئنا حتى إذا خطر لهم ما في الرحلة من حرج وعناء نظر الى هذه الآثار الحميدة ، فيخف وزن تلك المتاعب وتذهب في جانب هذه الآثار هباء .

الرحلة في نظر الإسلام

لم يدع الإسلام وسيلة من وسائل الرقي ، إلا نبه عليها وندب إلى العمل بها ، وهكذا شأنه في الرحلة فقد دعا إليها رامياً إلى أغراض سامية ، مثل طلب العلم قال تعالى : فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا

---

(١) عنوان المحاضرة الممتعة التي ألقاها في ردهة المجمع العلمي العربي العلامة السيد محمد الخضر حسين عضو المجمع العلمي بدمشق والمجمع اللغوي المصري والاستاذ في كلية أصول الدين بالازهر، وذلك في ٤ جمادى الآخرة ١٣٥٦ الموافق ليوم ١١ آب ١٩٣٧ .

قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون . ويلحق بالتفقه في الدين كل علم يعد من وسائل الرسوخ في علوم الدين كالنحو والبلاغة ، بل يلحق بالتفقه في الدين كل علم يكسب الأمة قوة ويكون له أثر في نجاحها والاحتفاظ بعزتها كفن صناعة الغواصات والطيارات .

ومن هذه الأغراض أخذ العبرة من أحوال الأمم الماضية ، قال تعالى : قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، ويلحق بأحوال الامم الماضية أحوال الامم الحاضرة متى كان في النظر اليها عبرة ينتفع بها في الوصول الى سعادة الحياة ، ومن هذه الأغراض الرحلة من دار الضلال والبغي الى دار الهداية والعدل ، قال تعالى : ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله . هذه الآية وردت في قوم كانوا يقيمون في دار عسف وغواية فحرضهم على الرحلة إلى المدينة حيث يشدون أزر المسلمين ويقفون في صفوفهم ويكثرون عددهم ، واذا تشابهت البلاد في الاستخفاف بأمور الدين فعلى العالم المصلح أن يجاهد في سبيل الدعوة الى الحق والإصلاح بقدر ما يجد من حرية القول أينما كان .

ومن فرائض الاسلام ما لا يؤدى إلا بوسيلة الرحلة وهو حج البيت الحرام ، وفي الرحلة الى الحجاز في أشهر الحج جانب عظيم من معنى التجول في أقطار مختلفة ، حيث يلاقي فيها الرجل طوائف من امم مختلفة الاجناس متباعدة البلاد .

ولا يسعني المقام أن أسوق شواهد من عناية علمائنا بالرحلة لأمثال هذه الاغراض النبيلة ، وأكتفي بأن أسوق على هذه الغاية قصة جابر بن عبد الله الانصاري ، ذلك أنه سمع وهو بالمدينة أن عبدالله بن انيس بالشام يروي حديثاً عن رسول الله ﷺ فاشترى بعيراً ثم شد رحله وسار الى الشام فسمع الحديث من عبدالله وقفل راجعاً الى المدينة .

المثبطات عن الرحلة وعلاجها

لاأريد من المثبطات عن الرحلة العوائق التي ليس في استطاعة الشخص علاجها، كفراغ يده من نفقات السفر وكقيامه على اسرة إذا فارقها وقعت في حاجة ونكد من العيش، بل أريد من المثبطات ما يعرض للنفوس الضعيفة ويغلب على أمرها، ولولا ضعفها لما كان له عليها من سبيل مثل استعظام مفارقة من يعز عليه من أقارب أو أصدقاء، سئل إمام الحرمين وهو على المنبر لماذا كان السفر قطعة من العذاب؟ فقال: لان فيه فراق الأحبة.

وفي الناس من يذكر ما في الرحلة من متاعب بدنية فيحجم عنها، وأكثر من يعرض لهم هذا المثبط اولئك الذين ينشأون في ترف والخلال عزيزة فيخشون ان يفوتهم ما اعتادوا من الرفاهية ولو زمناً قليلاً، ومنهم من يترك الرحلة حيث تضطره لركوب البحر فرقاً من أهواله، عزم الحافظ ابو الوليد هشام الوقشي على ركوب البحر الى الحجاز فهاله ذلك فقال:

لا أركب البحر ولو أنني ضربت فيه بالعصا فانفلق
ما إن رأت عيني أمواجه في فرق إلا تناهى الفرق

وقد يحجم الرجل عن الرحلة مخافة أن ترمي به بين أقوام لا يعرفون حسبه وأدبه فيلاقي من مرافقتهم أو معاشرتهم ما لا يليق بمنزلته ويرتاح له ضميره وقد أشار إلى ما يعرض للرجل من هذه الآلام النفسية الرحالة ابن جبير إذ قال:

لا تغترب عن وطن واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن إذا ما فارق الأصل ذوى

وأشار يحيى بن حكم المعروف بالغزال إلى أن الغربة سبب لفقد جانب من العزة. فقال:

فصمصام عمر حين فارق كفه رموه ولاذنب لعجز المضارب
وما عزة الضرغام إلا عرينه ومن مكة سادت لؤي بن غالب

وتألم الرحالة بن سعيد الأندلسي حين نزل ببعض بلاد الشرق وناداه بعضهم باسم المغربي فقال:

وأنادى مغربياً ليتني لم أكن للغرب يوماً أنسبُ
نسب يشركك فيه خامل ونبيه أين منه المهرب
أتراني ليس لي جد له شهرة أو ليس يدرى لي أب

وعلاج أمثال هذه المثبطات الناشئة عن ضعف النفس وقلة تمرينها علَى احتمال المكاره أن يذكر الرجل ما تأتي به الرحلة من ثمرات علمية أو أدبية عامة أو خاصة، فإذا وثقت نفسه بنبل غايتها وحسن عاقبتها سهل عليها كل صعب واستهانت بكل خطر، قال عبد الملك بن سعيد في وصية ابنه علي بن سعيد عندما عزم على الرحلة إلى الشرق:

وكل ما كابدته في النوى إياك أن يكسر من همتك

وعزم المأمون الخروج الى بعض الحروب فوقفت له جارية ممن شغف بهن ورغبت اليه ألا يخرج فقال لولا قول جرير:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

لما خرجت.

وأذكر أن أبا بكر بن العربي الاندلسي الذي قضى في رحلته ثمانية أعوام أورد في بعض كتبه مسألة من مسائل الخلاف حررها وهو في العراق وقال: لو لم أظفر في رحلتي إلا بهذه المسألة لكفتني، على أن ابن العربي قد لقي في رحلته نصباً في البحر ومخاوف في البر[1]

ليذكر الراحل أن ثمرة الرحلة لذيذة باقية، وأن تلك الآلام النفسية والمتاعب البدنية زائلة، قال القاضي محمد بن عيسى أحد الراحلين من الاندلس الى الشرق بعد أوبته:

كأن لم يكن بين ولم تك فرقة إذا كان من بعد الفراق تلاق
كأن لم تؤرق بالعراقين مقلتي ولم تمر كف الشوق ماء آماقي
ولم أزر الاعراب في جنب أرضهم بذات اللوى من رامة وبراق
ولم أصطبح بالبيد من قهوة الندى وكأس سقاها في الأزاهر ساق

(١) أنظر كتاب القواصم والعواصم له.

وجاء في كتب الادب أشعار يرد ناظموها على من يحاول تثبيطهم عن الرحلة كما قال بعضهم :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا   فقلت الى ذاك المقام أطوف

وقال ابن دراج :

ألم تعلمي أن الثواء هو النوى   وان بيوت العاجزين قبورُ

وربما كان المثبط عن الرحلة إعجاب الرجل بوطنه إذ يخطر له انه لا يرى في غير وطنه أحسن مما يرى فيه كما قال أبو القاسم عامر بن هشام :

يا من يزين لي الترحال عن بلدي   كم ذا تحاول نسلا عند عنين
وأين يعدل عن أرجاء قرطبة   من شاء يظفر بالدنيا وبالدين

وإعجاب الرجل بوطنه واعتقاده انه أجمع لمطالب الحياة قد يمنعه من رحلة الانقطاع ولا ينبغي أن يمنعه من الرحلات المحدودة بزمان ٠

وترى من الادباء من يمتلئ قلبه حباً لوطنه ولكنه يتغلب على هذه العاطفة ويذكر الداعي الى الرحلة فتطمئن اليها نفسه كما قال ابن سعيد لما خرج من حدود افريقية :

رفيقيّ جاوزنا حدود مواطن   صحبنا بها الأيام طلقاً محياها
وما أن تركناها لجهل بقدرها   ولكن ثنت عنا أعنة سقياها
فسرنا نحث السير عنها لغيرها   الى أن يمن الله يوماً بلقياها

فوائد الرحلة

إذا درسنا تاريخ العلماء والأدباء الذين رحلوا عن أوطانهم ووجهنا النظر الى ما نتج عن رحلاتهم من فوائد عادت عليهم أو على قومهم أو على الاوطان التي نزلوا بها ، وجدناها من الاهمية بمكان يدعو الى ان تعد في مقدمة وسائل الرقي والتهذيب ٠

ماذا يستفيد الرجل من الرحلة

من أنفس ما يكسب الرجل في رحلته أن يعلم ما لم يكن يعلم ، كم من عالم

لم يبلغ المقام الذي يشار اليه بالبنان إلا بالرحلة . والباحث في تراجم العلماء يقف على أسماء رجال كثيرين بلغوا في العلم الذروة ، وإنما بلغوها بما قاموا به من رحلات تقلبوا بها في مدن زاخرة بالعلوم ولاقوا بها كثيراً من اكابر العلماء مثل الامام الشافعي والحافظ بن عساكر و أبي الوليد الباجي وأبي بكر بن العربي وأسد بن الفرات ، ولابن خلدون في مقدمته التاريخية فصل افتتحه بقوله : أن الرحلة في طلب العلم مزيد كمال في التعلم وختمه بقوله : فالرحلة لا بد منها في العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ والتلقي عن الرجال .

وللرحلة أثر في سمو الفكر إذ يأخذ الرجل فيها من التجارب ما لا يأخذه وهو مقيم في بلد لا يخرج منه الى غيره ، وقد يكنون بها عن قوة العقل وحسن التصرف في الامور ، وانظر الى بديع الزمان الهمذاني حين أراد الدلالة على كمال عقله كيف عبر عنه بركوبه ظهري البر والبحر ، إذ قال في كتاب كتبه الى القاسم العرجي : فإني وإن كنت في مقتبل السن والعمر قد حلبت شطري الدهر وركبت ظهري البر والبحر .

والرحلة أثر في تهذيب الطباع ورقي الآداب ذلك أن كثرة ما يلاقيه الرجل في السفر من المشاق يقوي في نفسه خلق الحلم والمداراة وقد قال بعض الحكماء للغريب :

إن ترمك الغربة في معشر   تطابقوا فيك على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم   وأرضهم ما دمت في أرضهم

ولا يخلو الراحل متى كان بصيراً بمواقع العبرة أن يلاقي رجالاً ذوي آداب سامية فيقتبس من آدابهم ما يزداد به أدباً على أدبه ، وهذا ابن وهب رحل من مصر وتلقى العلم بالمدينة عن الإمام مالك وقال : تعلمت من أدب مالك أفضل من علمه ، وأقام يحيي بن بكير عند مالك بعد ان فرغ من سماع الحديث عنه وقال : إنما أقمت لاستفيد من شمائله .

وقد ينشأ الفتى في نبوغ ويضيق بلده عن انظاره الواسعة فيرحل الى مدينة تكون أوسع مجالاً للاراء الخطيرة فتعظم مكانته ويكثر الانتفاع بحكمته ، ولولا

الرحلة لما عظم شأنه ، ولما كثرت ثمرات نبوغه ، أذكر أن الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ر عند خروجه من الشام بالكرك فتلقاه صاحبها وسأله الإقامة عنده ، فقال له الشيخ بلدك صغير عن علمي ، وتوجه إلى القاهرة . وأسوق شاهداً على هذا أن القاضي يوسف بن أحمد بن كج بلغ في العلم مرتبة كبيرة ، قال له بعض من لقيه : يا أستاذ الاسم لأبي حامد الغزالي والعلم لك ، فقال القاضي : ذاك رفعته بغداد وأنا حطتني الدينور .

وقد تكون رحلة العالم أو الأديب من أسباب ظهور علمه أو أدبه وانتشاره في الآفاق ، قال الأديب أبو بكر المعروف بابن بقي :

ولي هم ستقذف بي بلاداً ... نأت إما العراق أو الشآما
لكيما تحمل الركبان شعري ... بوادي الطلح أو وادي الخزامى
وكيما تعلم الفصحاء أني ... خطيب علم السجع الحماما
وقد أطلعتهن بكل أرض ... بدوراً لا يفارقن التماما

وربما أدرك الرجل في وطنه ضيق عيش يخشى أن يعوقه عن الازدياد من العلم أو التفرغ لنشره بالتدريس والمذاكرة ، فيرحل حيث يلقى كفافاً أو يساراً يساعده على أن يقبل على الدرس والبحث بنفس مطمئنة : رحل القاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى مصر ، ونبه على سبب رحلته فقال :

سلام على بغداد في كل موطن ... وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها ... واني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علي بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكذلك قال أبو سعد النيرماني :

لقد سرت في شرق البلاد وغربها ... وطوفت خيلي بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً ... ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلاً ... وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا
وكم قائل لو كان حبك صادقاً ... لبغداد لم ترحل فكان جوابيا

يقيم الرجال الموسرون بأرضهم وترمي النوى بالمقترين المراميا

ومما يظفر به الرجل الفاضل في رحلته أن يتخذ في البلاد التي ينزل بها أصدقاء يغتبط بصداقتهم ، والصداقة الخالصة من ألذ ما يتمتع الانسان به في هذه الحياة ، وكتب الأدب مملوءة بالرسائل والقصائد التي دارت بين علماء وأدباء اختلفت مواطنهم وهي عامرة بروابط صداقات ناشئة بوسيلة الرحلة ، وهذا ابن خلدون ارتبط بصداقات كثيرة من علماء البلاد كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك ، وجرت بينه وبينهم مراسلات ، وأذكر من قصيدة بعث بها اليه ابن زمرك بعد نزوله مصر قوله :

بعيشك خبرني ولا زلت مفضلاً أعندك من شوق كمثل الذي عندي

ومثل الحافظ بن عساكر رحل إلى بلاد العجم بعد بلاد العرب وأذكر من قصيدة بعث بها إلى صديقه أبي سعد السمعاني قوله :

أنسيت ثدي مودة بيني وبينك وارتضاعه

ماذا يستفيد قوم الرجل من رحلته

قد تحظى البلاد بالعلم بعد انقطاعه عنها ، أو تقوم سوقه فيها بعد خمولها ، والفضل في ذلك لرجال يرحلون إلى الحواضر التي هي منبع العلوم ، ثم يعودون وقد امتلأوا مما اغترفوه من العلوم والفنون ، وقد بلغت الحالة العلمية بالأندلس بعد عودة أبي الوليد الباجي من رحلته الشرقية منزلة أرفع وأرسخ مما كانت عليه قبل أن يعود وارتحل أبو القاسم بن زيتون التونسي في أوساط المائة السابعة إلى المشرق فبرع في العقليات والنقليات ورجع إلى تونس فأمتعها بعلمه الكثير وأسلوب تعليمه البديع .

ويرحل العالم أو الأديب من وطنه وهو يحمل علماً غزيراً ويتحلى بأدب سني وينزل بين جماعات من بلاد مختلفة فيرونه مثالاً لأهل العلم والأدب من قومه فيرتفع شأن قومه في أنظارهم ، هذا إلى ما يصفه لهم من محاسن قومه أو ينقله اليهم من ثمرات أفكارهم .

ماذا تستفيد البلد ممن يرحلون اليها

يرحل العالم أو الأديب ، وينزل ببلد ، فيبذر بها متى كانت في حاجة إلى أمثاله — علماً أو أدباً ، ومن ذا ينكر أن بلاد الاندلس قد استفادت من العلماء الذين رحلوا اليها من الشرق ، مثل تاج الدين بن حموية السرخسي ، وأبي علي القالي ، كما استفادت دمشق من أمثال ابن مالك وابن السبكي ، واستفادت مصر من أمثال أبي حيان وابن خلدون .

وهذا المعري يحمد السفر الذي جاء بالقاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى المعرة فقال :

والمالكي بن نصر زار في سفر بلادنا فحمدنا الرأي والسفرا
إذا تحدث أحيا مالكاً جدلاً وينشر الملك الضليل إن شعرا

وتفقه البربر في علوم الدين عن عشرة من فقهاء التابعين بعثهم عمر بن عبد العزيز لهذا الغرض خاصة .

ونرى في تراجم كثير من العلماء الراحلين أنهم كانوا يلقون في البلاد التي ينزلون بها دروساً أو يدرسون بها علوماً يتلقاها عنهم بعض أهل العلم .

فرحلات العلماء والأدباء تنقل العلم والأدب من بلد إلى آخر على وجه أثبت وأنفع مما تنقله المؤلفات وحدها .

أثر الرحلة في تنمية العلوم

للرحلة فضل في نماء العلوم واتساع دائرتها ، وكم من كتاب يعد في علمه من أمهات الكتب هو وليد الرحلة ، ذلك أن أسد بن الفرات الراحل من القيروان إلى الشرق ورد مصر بعد أن تلقى العلم في الحجاز والعراق ، وألقى على ابن القاسم أسئلة يطلب الجواب عنها على مقتضى مذهب الامام مالك ، وجمع تلك الأسئلة وأجوبتها في كتاب كان يسمى الأسدية ، ثم رحل سحنون من القيروان بالأسدية إلى ابن القاسم ، وعرضها عليه ، وهذبها ، وأضاف اليها مسائل أخرى وصارت تسمى المدونة ، وهي المشار اليها بقول بعض أهل العلم :

أصبحت فيمن له علم بلا أدب ومن له أدب عار عن الدين
أصبحت فيهم فقيد الشكل منفرداً كبيت حسان في ديوان سحنون

وبيت حسان الذي لم يرد في المدونة غيره من الشعر قوله :

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

ومن فضل الرحلة أنها حفظت جانباً عظيماً من التاريخ ، حفظته الكتب التي يودعها مؤلفوها ما شاهدوه في أسفارهم من وقائع وأحوال ، مثل رحلة ابن بطوطة ورحلة العبدري ورحلة ابن جبير ورحلة خالد بن عيسى البلوي وغيرها ، فانا نرى في هذه الرحلات أشياء لا نجدها فيما بين أيدينا من كتب التاريخ .

أثر الرحلة في ثراء الأدب

للرحلة أثر في ثراء الادب لا يقل من أثرها في ثراء العلم ، فكم من قصيدة لا ينظمها الشاعر إلا حين يعزم على الرحلة لالقائها بين يدي ملك او وزير او وجيه مثل قصيدة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل الى منجاتها درسا

فان صاحبها ابا عبدالله بن الابار الراحل من الاندلس قد نظمها استنجاداً لأمير تونس وألقاها بين يديه .

ومما يرجع الفضل فيه للرحلة ذلك الشعر الوارد في التشوق الى الوطن او لاهل والاخوان ، ومن هذا الباب قول محمد بن يوسف الدمشقي يتشوق الى دمشق وهو ببلاد الروم :

بعاد يزيد الجوى والحنينا وبين يعلم قلبي الانينا
فراق أذاب الحشا أدمعا فأجرى بصافي الدماء العيونا

الى ان قال :

وجاد الحيا أربعاً بالشآم وسلم صحباً بها قاطنينا
رحلنا فما تابعتنا القلوب وصرنا فظلت لديكم رهونا

واذكر بهذه المناسبة ان استاذنا المرحوم الشيخ سالم ابا حاجب كان قد سافر

الى ايطاليا وبعث برسمه الى بعض اصدقائه في تونس وكتب عليه البيتين:

لما شكت شطط النوى روحي التي ابقيتها عند الاحبة بالوطن
ارسلت تمثالي لها[1] بوّاً عسى تسلو فلا تبغي التحاقاً بالبدن

أثر الرحلة في تعارف الشعوب

لا ينزل الرجل الفاضل بوطن إلا التقى بطائفة من فضلائه ، والشأن أن يصف لهم بعض النواحي من حياة قومه العلمية والاجتماعية ، ثم إذا عاد الى قومه ، وصف لهم حال الأوطان التي نزل بها ، فيكون كل من الشعوب التي رحل منها أو نزل بها ، على خبرة من حال الشعوب الاخرى .

وقد نبهنا على أن الرجل الطيب السريرة ، يتخذ في كل وطن أصدقاء ، وهذه الصداقات تعد فيما يربط بين الشعوب الرابطة الوثيقة ، وتعارف الشعوب بوسيلة العلماء والادباء ، يثير في نفوسهم عواطف الائتلاف والاحترام .

وإذا كان من أفضل آثار الرحلة عقد رابطة التعارف والتعاطف بين الشعوب ، فعلى المستطيعين منا أن يخصوا البلاد الشرقية بجانب عظيم من رحلاتهم ولو وجدوا في سبيل ذلك مشاق فوق ما يلاقونه في سبيل الرحلة الى البلاد الاجنبية .

أدب الرحلة

الآداب السنية كمال الانسانية ، فيجب على الانسان الاحتفاظ بها في وطنه ، كما يحتفظ بها في غير وطنه ، ورأينا بعض الحكماء يوجهون الى الغريب أو من رام الغربة عناية خاصة ، فيؤكد عليه في الاحتفاظ بالآداب الشريفة ، فقال بعضهم : يا غريباً كن أديباً ، ومن هذا القبيل وصية عبد الملك بن سعيد الاندلسي لابنه علي عند عزمه على الرحلة الى بلاد الشرق ، تلك الوصية التي يقول فيها :

اودعك الرحمن في غربتك مرتقباً رحماه في أوبتك
فلا تطل حبل النوى إنني والله أشتاق الى طلعتك

(١) البو جلد الحوار يحشي ثماماً او تبناً فيقرب من ام الفصيل فتعطف عليه ، فتدر .

وقال:

فليس يدرى أصل ذي غربة وإنما تعرف من شيمتك

ونبهه لآداب سامية فقال:

وامش الهوينــا مظهراً عفة وابغ رضاالاعين عن هيئتك
وكل ما يفضي لعذر فلا تجعله في الغربة من إربتك
ولا تجــادل حاسداً ابداً فانه أدعى الى هيبتــك

وقال:

وانطق بحيث العيّ مستقبح واصمت بحيث الخير في سكتتك

ومن أدب الراحل أن ينصف البلاد التي ينزل بها فيذكر محاسنها ، ويغتبط بما يلاقيه بها اهلها من احتفاء ومؤانسة . ورد تاج الدين بن حموية السرخسي بلاد المغرب ، فسأله سلطان المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن قائلا : أين هذه البلاد من بلادك الشامية ؟ فقال السرخسي : « بلادكم حسنة أنيقة ، وفيها عيب واحد ، فقال السلطان : ما هو؟ قال : إنها تنسي الاوطان . »

وممن قاموا على هذا الادب الجيل العلامة المقري صاحب كتاب نفح الطيب ، فقد نظم في الثناء على دمشق أشعاراً ، وتمثل فيها بأشعار ، ومما أنشده قول شمس الدين الأسدي :

إذا ذكرت بقاع الارض يوماً فقل سقيــا لجلق ثم رعيا
وقل في وصفها لا في سواها بها ما شئت من دين ودنيا

وأختم هذه المحاضرة بأبيات خطرت لي معانيهــا عند ما نزلت دمشق ، واني لست بشاعر ولكنني درست علم العروض ، فأستطيع أن أقول كلامــاً موزوناً ، والى حضراتكم هذه الابيات :

زارها بعد نوى طال مداها فشفا قلباً مُجداً في هواها
راح نشوان ولا راح سوى أن رأي الشام وحياه شذاها

نظرة في ساحها تذكره كيف كان العيش يحلو في رباها
ما شكا فيها اغترابا وإذا حدثته النفس بالشكوى نهاها

* * *

من يحث العيس في البيد الى بردى يحمد للعيس سراها
فهنا قامت نوادي فتية تبلغ النفس بلقياهم مناها
أدب يزهو كزهر بهج أرشفته السحب من خمر نداها
خلق لو نصح الحسود به ناصح لاتخذت منه حلاها
ملأوا جلق أنساً فأرى ليلها طلق المحيا كضحاها
شد ما لاقوا خطوباً فانتضوا مرهفات العزم طعناً في لهاها

* * *

عزة الامة في نشء إذا نشبت في خطر كانوا فداها
وجناحا فوزها استمساكها بهدى الله وإرهاف قناها
هي عين والهدى إنسانها فاذا ما فسقت لاقت عماها

* * *

رتل الذكر ملياً تره يغرس الحكمة أو يدني جناها
أطلق الافكار من أصفادها فمضت ترعى الثريا وسهاها
خض علوم الكون أحقاباً وسر في سماها إن تشأ أو في ثراها
لا ترى في الدين إلا مغرياً بجلاها أو مزيحاً لقذاها

* * *

ذكرونا سلفاً قاموا على ضيرة غراء والدهر طواها
أمة يذكي التقى غيرتها مثلما يذكي الندى نار قراها
شرف لو آنسته الشمس في افقه الأعلى لظنته أباها

***

أو يجدي مجد أسلاف إذا غرقت أجفان خلْف في كراها
امة تلهو بذكرى تالد عن طريف لم ترم عهد صباها

* * *

فابعثوها همما تسمو كما سمت الجوزاء تزهو في سناهـا
ما الفخار الحق إلا نهضة أحكم الإيمان والعلم عراهـا



دور الكتب

في حلب قديماً وحديثاً [1]

سادتي :

لم تقف همة أجدادنا العظام وسلفنا الصالح عند تأسيس المدارس وتشييد بنائها ، بل انهم ذللوا كل عقبة تعوق عن تحصيل العلم وتحول دون الورود إلى مناهله واجتناء ثمراته .

وقد وجدوا أن من أعظم الوسائل لرفع منار العلوم ونشر ألوية المعارف ، تأسيس خزائن الكتب في المدارس التي أنشأوها وتنظيم شؤونها واسنادها إلى أهل الفضل وذوي المعرفة والخبرة بها . فأخذوا في التباري في هذا المضمار ، وتسابقوا في حلبة هذا الميدان ، ووقفوا من الكتب على اختلاف العلوم والفنون ما لو بقي إلى الآن لعد بالملايين .

غير أن الحوادث والمصائب العظمى التي حلت بالإسلام في كثير من الأقطار شتتت شمل هذه الخزائن ومزقتها كل ممزق ، ولما انتبه العالم الغربي

---

(١) مجلة المجمع : ألقى الاستاذ محمد راغب الطباخ عضو مجمعنا العلمي هذه المحاضرة النفيسة في حفلة افتتاح دار الكتب الوطنية بحلب ، ويرى القارئ وصف هذه الحفلة في باب الآراء والأفكار من هذا الجزء .

كان في طليعة أعماله أن وجه نظره وهمته إلى الاستحواذ على هذه الكتب بشتى الوسائل فتم له ما أراد ، وأنشأ في العواصم الاوروبية وغيرها مكاتب حافلة اشتملت على آلاف من الكتب العربية والفارسية والتركية ، وكثير منها من النوادر التي لا تجد منها شيئاً في بلاد الشرق ، وأكبوا على ترجمتها ونشرها والاستفادة منها وما زالوا دائبين على ذلك الى وقتنا هذا .

ولو أردنا أن نذكر المكاتب التي شيدها سلاطين المسلمين وأمراؤهم وعلماؤهم وذوو اليسار منهم في مختلف الأقطار الاسلامية في الشرق والغرب لاحتجنا إلى مؤلف حافل ، غير أنا بمناسبة الاحتفال في هذا اليوم بافتتاح دار الكتب الوطنية التي هي فرع المجمع العلمي العربي في دمشق احببنا أن نقتصر بمحاضرتنا هذه على ذكر دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً ، ومنها يعلم أن الشهباء كانت غنية بهذه الذخائر الثمينة جارت غيرها من البلاد العربية الكبيرة ، ولاريب أن دور الكتب في الأمم هي مقياس رقيها وعنوان تقدمها .

يرشدنا التاريخ الى أن حركة العلم والادب كانت في القرن الاول والثاني ضعيفة في حلب وما حولها الا أنها أخذت تتقوى في القرن الثالث للهجرة ، فقد ظهر فيها وفيما حولها حفاظ في الحديث ونبغاء في الأدب ، وحسبك من هؤلاء الوليد بن عبيد الشاعر المشهور المتوفى سنة ٢٨٤

وكانت حلب في ذلك الوقت قد أخذت بحظ وافر من العمران وازدحمت بالسكان فتطاولت اليها أعناق الملوك والامراء ومن جملتهم سيف الدولة بن حمدان فنهض اليها بجيشه واستولى عليها وذلك سنة ٣٣٣ ومن ذلك الحين عظمت الحركة العلمية فيها وقامت دولة الادب ، وذلك لما كان عليه سيف الدولة من العلم والفضل واغداقه الاموال الطائلة على العلماء والأدباء وصارت الشهباء في عهده محط الرحال وموئلا لعظام الرجال ، وأسس فيها مكتبة عظيمة عنها انبعثت أنوار العلوم وتفجرت ينابيع الفنون ومنها انتهل المتعطشون .

قال الحافظ الذهبي في تاريخه : كان في خزانة الكتب بحلب عشرة آلاف مجلدة من وقف سيف الدولة بن حمدان وغيره ، وكان من جملة المتولين على هذه

الخزانة ثابت بن أسلم الشيعي المتوفى سنة ٤٦٠ فألف كتاباً في كشف عوار الاسماعيلية فحمل الى صاحب مصر فصلبه وأحرقت تلك الخزانة .

وقال الإمام الكبير والوزير الخطير عمر بن العديم في كتابه الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري الذي نشرناه على نقص قليل فيه في الجزء الرابع من تاريخنا (أعلام النبلاء) : وكان بحلب خزانة كتب في الشرقية التي بجامع حلب في موضع خزانة الكتب اليوم ، واتفقت فتنة في بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشيعة ، ونهبت خزانة الكتب وكان ذلك في زمن أبي العلاء ولم يبق في خزانة الكتب إلا القليل ، وجدد الكتب فيها بعد ذلك الوزير ابو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ثم وقف غيره كتباً أخر بها ، وقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي (الشاعر المشهور مؤلف كتاب سر الفصاحة الذي طبع حديثاً في مصر) هذه الخزانة في قصيدته الثائية التي كتبها من القسطنطينية بداعب أحد أصدقائه بها قال فيها :

أبلغ أبا الحسن السلام وقل له هذا الجفاء عداوة للشيعة
فلأطرفن بما صنعت مكابراً وأبث ما لا قيت منك ابنكة
ولأجلسنك للقضية بيننا في يوم عاشوراء بالشرقية
حتى أثير عليك فيها فتنة تنسيك يوم خزانة الصوفية

وهذا أبو الحسن سالم بن علي بن تميم الفقيه الكفرطابي المعروف بالحمامي ، وكان من فضلاء حلب وكان سني المذهب وابو محمد الخفاجي شيعي وكان بينهما مودة ومكاتبة وبنكة من غوغاء الشيعة . ثم ذكر الصاحب ابن العديم ما يفيد أن أبا العلاء المعري كان يغشى هذه المكتبة في تردده الى حلب .

ماذا حصل في هذه المكتبة بعد ذلك

قال ابن خلكان في تاريخه في ترجمة أبي السعادات المعروف بالمسعودي: حكي أبو البركات الهاشمي قال : لما دخل السلطان صلاح الدين الى

حلب سنة تسع وسبعين وخمسمائة نزل المسعودي المذكور الى جامع حلب وقعد في خزانة كتبها الموقوفة واختار منهـا جملة أخذها ، لم يمنعه منها مانع ، ولقد رأيته وهو يحشوها في عدل ، وهذه الحادثة مما يؤاخذ عليها السلطان صلاح الدين رحمه الله .

ثم أسس بعد ذلك في أواسط القرن السابع القاضي الاكرم جمال الدين يوسف بن ابراهيم وزير حلب دار كتب بحلب وجمع بها ما لا يوصف ، و كان هذا القاضي الوزير من غواة الكتب ومن عشاقها المتفانين في حبها .

قال ياقوت في معجم الادباء : وكان القاضي الاكرم جماعة للكتب حريصاً عليها جداً لم أر مع اشتمالي على الكتب وبيعي لها وتجارتي فيها أشد اهتماماً منه بها ولا أكثر حرصاً منه على اقتنائها ، وحصل له منها ما لم يحصل لأحد ، وكان مقيماً بحلب (وبها توفي سنة ست وأربعين وستماية)

وقال ابن شاكر في تاريخه فوات الوفيات في ترجمة القاضي الاكرم : وكان صدراً محتشماً كامل السؤدد جمع من الكتب ما لا يوصف وقصد بها من الآفاق وكان لا يحب من الدنيا سواها ، ولم يكن له دار ولا زوجة وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب ، وكانت تساوي خمسين الف دينار وله حكايات غريبة في غرامه بالكتب .

قال الصلاح الصفدي في تاريخه المرتب على السنين (في جزء منه هو الآن من مخطوطات المكتبة الاحمدية بحلب) في ترجمة القاضي الاكرم : وله حكايات عجيبة في غرامه بالكتب ، منها أنه وقع له نسخة مليحة من كتاب الانساب لابن السمعاني بخطه يعوزها مجلد من أصل خمسة ، فلم يزل يبحث عنه ويطلبه من مظانه فلم يحصل له ، فبعد أيام اجتاز بعض من يعرفه بسوق القلانسيين ، فوجدوا أوراقاً منه فأحضرها اليه وذكر القصة ، فأحضر الصانع وسأله عنه فقال : اشتريته في جملة أوراق وعملته قوالب للقلانس ، فحدث عنده من الهم والغم والوجوم ما لا يمكن التعبير عنه ، حتى أنه بقي أياماً لا يركب الى القلعة وقطع جلوسه ، وأحضر من ندب على الكتاب كما يندب على الميت المفقود

المؤيس منه ، وحضر عنده الاعيان يسلونه كما يسلى من فقد له عزيز . والحكايات الدالة على عشقه الكتب كثيرة ٠ ا ه

وكتاب الانساب هذا كتاب عظيم في هذا الفن ذكره ابن خلكان في ترجمة مؤلفه عبد الكريم بن محمد المروزي وانه في ثمان مجلدات وقد اختصره عز الدين بن الاثير في ثلاث مجلدات والمختصر هو الموجود بأيدي الناس والاصل قليل الوجود . قال ذلك عنه ابن خلكان وهو من اهل القرن السابع . وهـذا الكتاب يحتاج اليه مزاولو علم الحديث والتاريخ والادب والجغرافية فانه يوقفك على الصواب من اسماء الرجال والبقاع الى غير ذلك من الفوائد ، يوجد الان منه نسخة نفيسة في مكتبة كوبريلي زاده محمد باشا في الاستانة رقمها ١٠١٠ . وقد سبقنا الالمانيون الى طبع هذا السفر النفيس عندهم بالفوتوغراف (المصور الشمسي) وجاء منه نسخة الى حلب الى بعض باعـة الكتب بيعت آخراً على ما اظن الى مكتبة المدرسة الخلوتية ، ولا أدري أطبعه الالمانيون على هذه النسخة الموجودة في الاستانة ام على غيرها ، وعلى كل فان نسخه الاصلية نادرة الوجود .

ومن جملة المكاتب العظيمـة التي اسست في حلب مكتبة العلامة شرف الدين الشيخ عبد الرحمن العجمي باني المدرسة الشرفية وراء الجامع الكبير واشتهرت عند الناس بالاشرفية وهو خطأ ، وكانت وفاته سنة ثمان وخمسين وستمائة في وقعة التتر لما دخلوا حلب .

قال مترجموه : وقد وقف الواقف رحمه الله تعالى على هذه المدرسة الكتب النفيسة من كل فن من حديث وتفسير وفقه ونحو وغير ذلك ، فمن كتبها مسند الامام الشافعي والأم وجميع كتب الامام الشافعي وكتب الاصحاب كتفسير الثعلبي وغيره من التفاسير وكالنهاية والحـاوي الكبير والابانة والتتمة والذخائر والشامل ، (الى ان قال) وكان بها اربعون نسخة من التنبيه وجميع كتب الغزالي وكانت اسماء الكتب مثبتة عند اقاربه في درج كبير فذهب في محنة تيمر .

ومن دور الكتب في حلب جامع منكلي بغـا المعروف الان بجامع الرومي في محلة باب قنسرين أنشيء هذا الجامع سنة سبع وستين وسبعمائة هجرية .

قال أبو ذر في تاريخه كنوز الذهب : ووقف منكلي بغا كتباً نفيسة لهذا الجامع ومنها التفسير للقرطبي والتبصرة لابن الجوزي ومجمع الاحباب للحسيني وغير ذلك من الكتب النفائس وقد ذهب نصف مجمع الاحباب وكان كله في مجلدين فذهب مجلد واحد وهو كتاب جليل ترجم فيه الاولياء والعلماء وتكلم فيه على طريق الصوفية ، ووضع الكتب في خزائن الجامع المذكور . وهذه الخزائن متقنة محكمة فيها الصنائع العظيمة على طريق النجارين وبلغني ان الشيخ قربكا وهو من الصالحين كان نجار ذلك .

والان لا خزائن هناك ولا كتب وقد رأيت منها تفسير القرطبي في بعض البيوت وهو في (١١) مجلداً من اصل خمسة عشر وقد بيعت هذه المجلدات منذ عهد قريب ، ويغلب على الظن ان هذه النسخة النفيسة اصبحت الان في خزائن المكاتب الغربية .

ومن دور الكتب دار الحديث التي أسس بنيانها أحمد مطاف باشا من غلة دراهم قدرها عشرة آلاف دينار ذهباً وقفها في سبيل الخيرات وكتاب هذا الوقف محرر سنة ١٠٠٤ ، ودار الحديث هذه كانت شرقي تربة الواقف الكائنة في محلة الجلوم الملاصقة للخان المعروف بخان المطاف ، وقد ذكر في كتاب وقفه ثمانين كتاباً خطياً وقفها على دار الحديث هذه ، وهي كتب متنوعة من جملتها جلدان من لسان العرب وصل فيها الى حرف الراء وقد تبعثرت هذه الكتب واستبدلت هذه الدار بدار في محلة وراء الجامع دعيت بدار الحديث أيضاً لكنها في عداد المدارس المعطلة التي لا تستفيد منها الامة .

هذا ما عثرت عليه في هذه العجالة من دور الكتب في الشهباء قبل الالف ، وكلها أصبحت أثراً بعد عين ونحن نلقي تبعة ذلك على أمراء ذلك العصر وعلمائه فانه لولا تهاونهم وسكوتهم لحفظ الى هذا الوقت ذلك التراث المجيد ولكننا نقتطف منه ثماراً يانعة ولكن الى الله المشتكى .

ما أنشئ من دور الكتب بعد الالف

من أعيان الشهباء في أوائل القرن الحادي عشر رجل يقال له الشيخ أحمد

القاري وكان خليفة للشيخ ابي بكر صاحب المزار المشهور الذي يعد اليوم في جملة آثار حلب القديمة وهو شرقي حلب الى شماليها .

وكان هذا الرجل ذا تدبير وحسن رأي وصلاح ومعرفة وسخاء يد محبوباً الى الامراء الذين يردون حلب والى الاهلين فأغدقت عليه الاموال ، فبنى تلك التكية المعروفة الى اليوم بتكية الشيخ ابي بكر ووقف لها عقارات ومزارع ونظم امورها على ما يطلبه ذلك العصر ، ومن جملة ما أسسه فيها مكتبة قيمة فيها مختلف العلوم والفنون إلا انها كانت كغيرها عرضة للناهبين ومنذ عشر سنين كان فيها بقية قليلة في خزانة تجاه ضريح الشيخ أبي بكر ، ورأيت في جملة هذه البقية مصحفاً كريما محلى جميعه بالذهب وربعة أي أجزاء من القرآن العظيم وكل جزء منه محلى كذلك ، ولا أكون مبالغاً اذا قلت لكم ان هذا المصحف وتلك الاجزاء تساوي اكثر من ٣٠٠ ليرة ذهبية وقد فقد ذلك كله ، وتلك البقية من الكتب استلمتها دائرة الاوقاف منذ سنين قلائل وأضافتها الى كتب مكتبتها .

وهذا الرجل هو الشيخ أحمد القاري وقف كتباً قيمة أيضاً على التكية المولوية ، وهي مما بني في اواسط القرن العاشر وكان هو مولوياً أيضاً ، وأظن ان هناك اشخاصا آخرين ممن تولوا أمر هذه التكية وقفوا فيها كتبا كثيرة إلا انها ايضا كانت معرضة للنهب لعدم انتظام أمرها ففقد منها الكثير ، وفي فهرست كتبها الاخيرة عدد الكتب يناهز ١٢٠٠ ولما أحصتها دائرة الاوقاف بلغت ٩٥٠ كتاباً ، الا ان المهم من هذه المكتبة لا يزيد على خمسين كتابا وهي اليوم بحالة لا يستفاد منها مطلقا وذلك مما يؤسف له ، وقد قلنا ان تبعة ذلك ملقاة على عاتق امراء حلب وعلمائها فهم المسؤولون عن ذلك كله (فكلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته) .

وفي القرن الثاني عشر في اواسطه وأواخره أسس في الشهباء خمس مكاتب الاولى أسسها أحمد افندي طه زاده وتعرف اليوم بالمكتبة الاحمدية وهي في مدرستة التي أنشأها في محلة الجلوم ، تحوي الفا واربعماية وخمسين كتابا تبلغ

ثلاثة آلاف مجلدة كلها مخطوطة ، وفيها الكثير من النفائس ، وبالرغم عن تشديد الواقف في أمرها فانها لم تسلم من ايدي العابثين وعلى ما اقدر انها نقصت من حين إنشائها الى الان نحو ١٥٠ كتابا منها نحو السبعين فقدت منذ خمسين سنة الى الان ، وهي بالنسبة الى غيرها تعد محفوظة بالجملة • ومن جملة نفائسها اسطرلاب نحاسي بديع الصنعة محكم لا تقل قيمته عن خمسين ليرة ذهبية ، وفيها كرتان قديمتان من صنع اوربة الواحدة سماوية والاخرى ارضية بلغني ان زائرة ايطالية عالمة بالآثار اكدت ان هاتين الكرتين قل ان تجد كرة معاصرة لها في المتاحف الاوربية •

الثانية : اسسها المرحوم عثمان باشا الدوركي باني المدرسة العثمانية واضاف اليها المرحوم تقي الدين باشا المدرس الحلبي كتبا مخطوطة ومطبوعة وذلك في اوائل هذا القرن ، وفيها من وقف هذين العظيمين كتب من النفاسة بمكان ولم تسلم ايضاً من الايدي الاثيمة لعدم انتظام امر قوامها ، وبعض هذه الكتب لقلة الاهتمام بها اصابتها الامطار فالتصقت اوراقها بعضها ببعض ، والخلاصة ان الخلل في هذه المكتبة ليس اقل من الخلل الواقع في اوقافها وهذا مشاهد معلوم •

الثالثة : اسسها المرحوم احمد افندي الكواكبي في مدرسته التي انشأها في الجلوم ، وكانت لا تقل اهمية عن المكتبة الاحمدية ، وقد بددت كلها وبضع اجزاء منها آل الى مكتبة الاوقاف العامة ، وقد كان فيها عدة كتب هي من تأليف بني الكواكبي منها ذيل في تراجم الرجال لمحمد افندي الكواكبي ورحلة نفيسة الى احمد افندي الكواكبي جد احمد افندي الواقف •

الرابعة : مكتبة اسسها الشيخ محمد البخشي شيخ سجادة التكية الاخلاصية في محلة البياضة ، وزاد فيها بعد ذلك الشيخ ابو الوفا الرفاعي جد بني الرفاعي القاطنين بها الان ، ولم تسلم كغيرها من المكاتب بل امتدت اليها بعض الايدي ولم يزل منها جملة حسنة في خزانة آل الرفاعي ، وهي غنية بكتب الحديث والرجال وفيها ما لا يوجد في غيرها ، وقد كنت نشرت نفائسها في مجلة مجمعنا العلمي العربي •

الخامسة : المكتبة المارونية وهي في دار البطريركية المارونية ، وكون تأسيسها منذ قرنين اقوله ظنا لا يقيناً .

ومنها من النفائس في كتب الادب : مباهج الفكر ومناهج العبر لمحمد ابن ابراهيم الانصاري المعروف بالوطواط المتوفى سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، ومن هذا الكتاب عدة نسخ في الاستانة وهو جدير بالطبع .

وفي القرن الثالث عشر انشئ في المدرسة البهائية المعروفة بالصلاحية ايضاً مكتبة فيها الان نحو ٧٠ كتاباً ، وكذلك في المدرسة المنصورية في محلة الفرافرة انشأها الشيخ منصور السرميني وقد تبعثرت واحضرت البقية الباقية منها سنة ١٣٤٥ الى مكتبة الاوقاف .

ومكتبة أنشأها اسماعيل باشا واقف المدرسة الاسماعيلية في مدرسته ، وقد بقي منها بقية أحضرت أيضاً إلى مكتبة الاوقاف .

ومكتبة في خزانة جامع السكاكيني في محلة القصيلة بقي منها بقية أحضرت الى مكتبة الاوقاف .

ومكتبة في خزانة المدرسة الطرنطائية في محلة محمد بك في باب النيرب عند بني الباونجكي لم يزل منها بقية إلى اليوم .

ومكتبة في المدرسة القرناصية في محلة الفرافرة بددت أيضاً وأصبحت في خبر كان .

ما أسس من المكاتب في هذا القرن

مكتبتان هامتان وقفهما رجلان جليلان في هذا القرن :

الاولى : مكتبة وقفها محمود أفندي الجزار ، وضعت بعد وفاته في الجامع الكبير .

والثانية : مكتبة الحاج عبد القادر الجابري بقيت في بيته بعد وفاته ، ثم أحضرت المكتبتان منذ خمسة عشر عاماً إلى المدرسة الخسروية ثم نقلتا إلى المدرسة الشرفية التي تقدم ذكرها ، وأضيف اليها ما تقدم ذكره من البقية الباقية في تكية الشيخ أبي بكر والمنصورية وجامع السكاكيني والمدرسة الاسماعيلية واشتريت لها بعض الكتب المطبوعة فتألف من ذلك مكتبة حسنة تابعة لإدارة

الأوقاف ، لكنها في حاجة كبرى إلى الزيادة مما طبع في مصر وأوربة وغيرها ليكون منها مكتبة حافلة يرتوي منها رواد مناهل العلم ، فعسى أن تلبي دائرة الاوقاف نداءنا وتضع لها في ميزانيتها كل سنة مقداراً حسناً يكون سبب نموها وانتظامها .

ومنذ سنوات وقف الشيخ أحمد الصديق رحمه الله كتباً مخطوطة ومطبوعة على مدرسة في محلة قارلق ولم تزل هناك إلى الآن .

وآخر مكتبة أسست في الشهباء هي مكتبة فرع المجمع العلمي العربي بدمشق وكان ذلك منذ أربعة عشر عاماً أرسل اليها المجمع من تأسيسها إلى الآن نحو ١٩٠٠ مجلد ، وفي هذه السنة أرسل اليها ١٢٠٠ كتاب فصار فيها جملة صالحة إلا أن المكان الذي كانت فيه وهو تلك الحجرة التي هي في الطابق العلوي في خان الكمرك التابع لدائرة الاوقاف كان غير صالح لوضع مكتبة فيه وذلك لضيقه وعدم ارتفاع سقفه ، والانسان يضيق به ذرعاً بعد قعوده فيه قليلاً وتعتريه السآمة فيغادر المكان وهو لم يشف غليلا ، وأمكنة المطالعة يقتضي أن تكون فسيحة الارجاء مرتفعة السقف ينشرح لها الصدر وترتاح بها النفس ليكون ذلك سبباً للدأب في المطالعة والاسترسال فيها من غير ملل .

وطالما ذاكرت المجمع العلمي بدمشق وفي حلب عند حضور رئيسه وبعض أعضائه عن حالة هذا المكان فلم يجد ذلك شيئاً ، إلى أن عين محافظ حلب المحبوب الامير مصطفى الشهابي . فذاكرته في ذلك لاول زيارتي له في فندق بارون على اثر حضوره فوجدت منه أذناً صاغية وقلباً ملىء شغفاً بهذه المشاريع التي فيها مستنار العقول وحياة البلاد .

ولم تقف همة المحافظ حفظه الله عند نقل هذه المكتبة من مكانها الضيق الى هذا المكان المتسع الجميل بل سعى لدى المجلس البلدي بأن يضع في ميزانيته مبلغاً وافراً في كل سنة ليبني داراً عظيمة للكتب ويبتاع منه ما يطبع في مصر وغيرها من الكتب العربية وغير العربية ليجد المطالع فيها جميع ما يحتاج إليه

وما يشفي غليله ، ولا ريب أن هذا العمل مأثرة كبرى لمحافظنا يحفظها له التاريخ ويخلد له جميل الذكرى . والمجلس البلدي يكون في عمله هذا قد اقتدى بالمجالس البلدية في البلاد الأوروبية فان لها مكاتب عظيمة هي في تقدم مستمر .

ولم نسمع في الشرق للمجالس البلدية مكتبة إلا للمجلس البلدي في الاسكندرية فان له مكتبة قيمة اشتملت على آلاف من المخطوطات والمطبوعات وهو في كل سنة يزيد في عددها وتنظيمها .

فإذا أبرز المجلس البلدي في حلب هذا المشروع لحيز الوجود وقام بهذا العمل المجيد يكون المجلس الثاني الذي قام في الشرق بأمثال هذه المشاريع النافعة للبلاد ، وهو الاول من نوعه في البلاد الشامية .

والذي نرجوه من المجلس البلدي ومن دائرة الاوقاف إذا أحبا أن يكون لنا مكاتب تدر بالفائدة الكبرى على هذه البلاد أن لا يقتصرا على ابتياع ما طبع وما يطبع فحسب بل عليهما أن يأخذا ما تعظم الفائدة به من آثار أسلافنا التي تسربت إلى مكاتب الغرب والاستانة ومصر بالمصور الشمسي ويستردا بضاعتنا الينا .

وأهم هذه الآثار بالنسبة إلى حلب بل الى بلادنا الشامية جميعها ذلك التاريخ العظيم وهو « بغية الطلب في تاريخ حلب » للامام الكبير والوزير الخطير والمؤرخ الشهير الشاعر الناثر ذي الخط الجميل الذي ضرب به المثل ونوه به شعراء عصره كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم الحلبي المتوفى سنة ٦٦٠ وقد أفردت لهذا الرجل العظيم ولتاريخه كتاباً خاصاً في سبعين صحيفة .

ومعظم تاريخه بخطه في ثمان مجلدات في سراي طوب قبو في الاستانة وجزء منه في لوندرة وجزء في باريس وثلاثة أجزاء في مكتبة أيا صوفية في الاستانة وهي بخطه أيضاً وقد سبقتنا الحكومة المصرية الى أخذ هذه الاجزاء بالمصور الشمسي ، وقد كان المرحوم أحمد زكي باشا أرسل لي سبع أوراق أخذها عن

النسخة المصرية وها هي أعرضها على أنظاركم الكريمة ، وجزء من هذا التاريخ العظيم في إحدى مكاتب الموصل قد استنسخناه وفيه ترجمة نحو عشرين شاعراً من شعراء المعرة قل منا من يعرف واحداً منهم الى غير ذلك من الفوائد التي اشتمل عليها هذا الجزء وها هو بين أيديكم ، وباسترداد هذا الكتاب وأمثاله مما نحن في حاجة اليه وإبرازه لعالم المطبوعات نزداد علماً بمجد آبائنا ومعرفة ببلادنا الشامية وما دثر منها والاحوال المدنية والعمرانية التي كانت عليها ؛ ونقف على ما أنبتته من الرجال وما قاموا به من جليل الاعمال وما خلدوه من الآثار الى غير ذلك من جلي الفوائد وعظيم العوائد ، وذلك ولا ريب من أعظم البواعث لنهضتنا واستيقاظنا من رقدتنا ، واسترجاع سالف عزنا ومجدنا ، والله الموفق ، والسلام عليكم ورحمة الله .

في ١٨ جمادى الاولى سنة ١٣٥٦

في ٢٦ تموز سنة ١٩٣٧

محمد راغب الطباخ



آراء وأخبار

وفاة

السيد مصطفى صادق الرافعي عضو المجمع العلمي العربي

ينعي المجمع العلمي الى أعضائه أخاه الاديب العربي الكبير السيد مصطفى صادق الرافعي الذي استأثر به ربه يوم الاثنين من شهر صفر المحرم ١٣٥٦ ١٠ — ٥ — ٣٧ ، وقد انتخبه المجمع العلمي عضواً مراسلا سنة ١٩٢٨، وهو من أعلام العرب في العلم والأدب قضى حياته في خدمة لغته وآدابها شعراً ونثراً في الصحف والمجلات والمصنفات الممتعة ، فهو من زعماء الانشاء المحافظين على أسلوب البلغاء الابيناء من السلف ، وبذلك عاش من الكرام الكاتبين الذين ارتقت بهم الكتابة ، فقربت اللغة من بيان العرب بمقدار ما تجافت بها عن مضاجع العجمة وستؤبنه المجلة تأبيناً مفصلاً في الجزء التالي طاب ثراه ، ورحمه الله .

أغلاط دائرة المعارف الاسلامية

اطلعت في العدد التاسع من المجلد الثاني من دائرة المعارف الاسلامية المعربة حديثاً بمصر على ترجمة السيد محمد الآلوسي المفسر الشهير وهي من إنشاء الدكتور بروكلمان المستشرق المعروف ، وقد وجدت فيها غلطات تاريخية

لذلك أحببت أن ألاحظ على كاتبها، وليس لي من قصد غير خدمة العلم؛ قال الدكتور بروكلمان:

« ولد الآلوسي عام ١٢١٨ هجرية »، والصحيح أن ميلاده في سنة ١٢١٧ هجرية مثلما هو مذكور في ترجمته في كتابه المسمى بكشف الطرة عن الغرة نقلاً عن كتاب جلاء العينين في محاكمة الاحمدين تأليف نجل المترجم — ثم قال: « إن الآلومي تنازع هو والباشا التركي (يعني والي بغداد) ورغب أن يدافع عن نفسه وعن حقوقه في عاصمة الدولة العلية، فرحل اليها في جمادى عام ١٢٦٧ هجرية وبلغ صامسون بعد أن مرّ بالموصل وديار بكر ثم ركب البحر الى الاستانة، ولما لم يقابله الصدر الاعظم بما هو أهله عاد أدراجه الى موطنه دون أن يحقق غرضه » هذا أيضاً خلاف الواقع إذ الآلومي نفسه ذكر في رحلته التي سماها « نزهة الالباب وغرائب الاغتراب » اجتماعه بالصدر الاعظم رشيد باشا وذلك بواسطة شيخ الاسلام حينئذ عارف حكمة، وقد قابله الصدر بما يليق بمقامه من التجلة والاحترام وقضى له ماربه وأغراضه كلها وقد رجع من عنده وهو يلهج بالثناء عليه وعلى شيخ الاسلام المذكور — ثم قال الكاتب: « وقد كتب أحد أقربائه واسمه نعمان خير الدين الآلومي وكان يقطن كذلك في بغداد دفاعاً عن ابن تيمية عنوانه جلاء العينين في محاكمة الاحمدين (بلاق عام ١٢٩٨) ذكر الكاتب ان مؤلف الكتاب المذكور هو أحد أقرباء الآلومي بل الصحيح انه نجل السيد محمود الآلومي المترجم؛ وذكر الكاتب أيضاً أن مصنفه المذكور مطبوع في بلاق عام ١٢٩٨ وهذا تحريف من الكاتب والصحيح بولاق كما ذكره العلامة مؤرخ مصر تقي الدين المقريزي في المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار والسيوطي في حسن المحاضرة وكما هو مشهور عند العامة فضلا عن الخاصة، ثم ذكر الدكتور بروكلمان ان تفسير الآلومي المسمى بروح المعاني طبع في ثمانية اجزاء بمطبعة بلاق فيما بين عامي ١٣٠١ و ١٣١٠ هـ » والحقيقة ان تفسيره طبع بمطبعة بولاق في تسع مجلدات ضخمة لا في ثمانية اجزاء، وقد وهم أيضاً في قوله: بين عامي ١٣٠١ — ١٣١٠ بصيغة المثنى، والحال ان مدة استغراق

طبع التفسير المذكور كانت تسع سنوات فكان الاصح ان يقال بين أعوام كذا أو بين سني كذا .

طرابلس الغرب : **علي محمد الفقيه حسن**

رجاء

الى أعلام العربية والاستشراق

رجعت في معنى (السِيرار) الذي عده المرزوقي في كتابه (الأزمنة والامكنة) من جملة بيوع العرب في الجاهلية إلى المعاجم الاتية :

١- تاج العروس (شرح القاموس) .

٢- لسان العرب لابن منظور .

٣- الصحاح للجوهري .

٤- المجمل لابن فارس (نسخة مخطوطة كاملة في المكتبة الظاهرية) .

٥ - الجمهرة لابن دريد .

٦- الفائق للزمخشري .

٧- أساس البلاغة .

٨ - النهاية لابن الاثير .

٩- المصباح المنير .

١٠- المخصص لابن سيده .

١١- التهذيب للازهري (نسخة مخطوطة في المكتبة الاحمدية بحلب) .

ثم تحريت في شروح الحديث وكتب الفقه ، مظنة أن أجد فيها تعرضاً له في صدد كلام عن البيوع الفاسدة أو النهي عنها فلم أجد أحداً من أصحاب المراجع المذكورة قد ذكر هذا الضرب من البيع ، ولم يتعرض له غير صاحب محيط المحيط (وقد روينا عبارته) ولم أهتد بعد الى المصدر الذي استقى منه هذا التفسير .

فالمرجو من علماء العربية ممن عندهم معاجم مخطوطة أو مطبوعة إذا عثروا على النص الموثوق في ذكر بيع السمرار ان يتكرموا فيوافوني بالبيان الشافي عن طريق المجمع العلمي العربي بدمشق ولهم الشكر الجزيل .

غرة صفر سنة ١٣٥٦

سعيد الافغاني

حفلة افتتاح دار الكتب الوطنية بحلب

عشية الاربعاء الواقعة في ١٩ جمادى الاولى سنة ١٣٥٦ (٢٧ تموز ١٩٣٧) أقيمت في عاصمة بني حمدان حفلة افتتاح دار الكتب الوطنية ، وقد ضمت جمهوراً من العلماء والاعيان ورجال الصحافة .

وعند افتتاح الحفلة ألقى الاستاذ سامي الكيالي كلمة مفيدة عن دار الكتب ومساهمة دار الامانة (البلدية) في إخراج هذه الخزانة من سجنها القديم ، ثم القى الشيخ علي الكحال قيم خزانة الاوقاف كلمة عن خطورة الكتب ومكانتها عند الامم العربية والغربية ، ثم أنشد الاديب شارل الخوري قصيدة في الموضوع ، وعلى أثره نهض مؤرخ الشهباء ومدير المدارس العلمية فيها الشيخ محمد راغب الطباخ وألقى كلمة ممتعة عن خزائن الكتب الحلبية وعن تسابق الحلبيين في اقتناء نفائس الكتب وإنشاء الخزائن لها ، ولم ينس الاستاذ الفاضل وهو من أعضاء مجمعنا العلمي ، ان ينوه بشأن المجمع العلمي ويذكر يده البيضاء في تنشيط العلم والعلماء في حلب وذلك بانشاء فرع له فيها يضم أفاضل علماء الشهباء ، وبانشاء خزانة كتب تشتمل على نفائس الاسفار .

وبعد ان القى الاستاذ الطباخ محاضرته التي نشرناها في هذا الجزء القى محافظ حلب وعضو مجمعنا العلمي الامير مصطفى الشهابي كلمة وجيزة قال فيها : « نحن هنا في حرم الادب بعيدون عن السياسة والتحزبات وضوضائها المنغصة » . ثم قال : ليس الفضل لي وحدي في إحياء هذه المكتبة بل لرئيس البلدية والمجلس

البلدي واعضاء فرع المجمع العلمي في حلب ، وهم الذين عطفوا على هذا المشروع العلمي وساهموا في إحيائه ، والذي أرجو ان يوفقنا الله لتحقيقه ذلك القرار الذى اتخذه المجلس البلدي بفتح اعتماد بعشرة آلاف ليرة سورية في موازنة بلدية حلب لانشاء دار كبيرة للكتب وردهة لالقاء المحاضرات .

وذكر انه أخذ وعداً صادقاً من الاستاذ سعدالله الجابري وزير الداخلية بأن يضع في موازنة المعارف لعام ١٩٣٨ عشرة آلاف ليرة سورية لهذا المشروع ايضاً .

والفضل الذي يعود لمحافظ حلب ، وهو عضو مجمعنا العلمي ، يعود بالتالي للمجمع العلمي نفسه ، فهو الذي أنشأ خزانة الكتب الحلبية ، وقام بنفقات موظفيها مدة أربعة عشر سنة ، ولا يزال بها قائماً ، وأمدها بنفائس الكتب ، وآخر ما أرسله هدية اليها الف ومائتان من المجلدات .

ولقد كان في نية المجمع عند توفر المال ان ينقل خزانته الحلبية الى دار فخمة في سرة المدينة تليق بمكانة العلماء وبتاريخ الشهباء وقد كتبت أمانة سر المجمع الى الحكومة بذلك مراراً ، ومحافظ حلب آخر من راسلته في ذلك فالحمد لله الذي قدّر للمجمع العلمي على يد أعضائه ان يرفع من شأن خزانة الشهباء ، وان يجعلها مثابة للناس وينفع بها العلماء والادباء .



مطبوعات حديثة

السيد رشيد رضا

او إخاء اربعين سنة

تأليف

الامير شكيب ارسلان من اعضاء المجمع العلمي العربي

مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٣٥٦ / ١٩٣٧

إن الحلية الخاصة التي تحلى هذا الكتاب بها هي سجية الوفاء للاصدقاء ، وهي الصفة التي امتاز بها مؤلف هذه السيرة الممتعة الأمير شكيب أرسلان ، لانها تشتمل على نحو الف صفحة في ذكر مناقب السيد رشيد رضا الذي يقول عنه الامير في المقدمة ما نصه : « وبعد هذا فلا شك في أنه إذا وزن عمل كل من أعيان هذا العصر بل من أعيان كل عصر كان السيد الامام محمد رشيد رضا من أرجحهم ميزانًا ، وأوفاهم قسطًا لا يجحد ذلك الا من رانت عليه الضلالة أو أعماه الغرض ؛ وإني لأجد نشر مناقبه والتنويه بقدره والاشادة بحسناته الكثيرة والانارة لبراهينه الساطعة من عزائم الله الموجبة وفرائضه المبرمة عملا بقوله تعالى : وزنوا بالقسطاس المستقيم » .

ان سير العظماء تشبه قصائد الرثاء ، ووجه الشبه بينهما ان مؤلفي هذين الصنفين لم يقصدوا من ورائهما جزاءاً ولا شكورا ، فهما آيتان ناطقتان بالوفاء من آيات الثناء ، وجانب الخسارة المادية في كتابة السير يغلب في معظم الاعيان جانب الربح ، فالدلالة على وفاء الامير لصديقه أدبية ومادية معاً ، وقد أشاد بفضائله حياً وميتاً في كتاب حاضر العالم الإسلامي واعاد ما نشره فيه في الصفحة ١٤ من هذه السيرة تحت عنوان (ما قلته في السيد رشيد) ٠

وقد جمع الامير في تاريخ الاستاذ الرشيد جميع ماله علاقة بها فمن تقريظ الامير للوحي المحمدي الى مقدمة السيد رشيد لكتاب الارتسامات اللطاف ، الى ما كتبه في المنار عن حديثهما مع أعضاء جمعية الامم ، وعن وفد الصلح والسلام ؛ ومن جملة فصول هذه السيرة ما قيل في السيد الرشيد عند وفاته في الجرائد والمجلات ، أو ما ألقي في الحفلات ٠

وفي السيرة كثير من الابحاث التاريخية السياسية منها بحث المشانق العربية التي نصبها الطاغية جمال باشا في دمشق وبيروت ، وكيف غدر بالسيد عبد الحميد الزهراوي ، واستحضره الى المحاكمة في الديوان العرفي بعالية بعد أن كان من أعضاء مجلس الأعيان ، وقد أراد الزهراوي رحمه الله أن يقنع جمالا ببراءته ويستل سخيمة صدره وذكره بما كان بينهما من عهد فقال له : إنه ليس له مدخل في الامر وانه لن يصيبه أذى إذا كان الديوان العرفي يحكم ببراءته ، قال الأمير : وحقيقة الحال أنه كان من البداية ينوي البطش به ، وقد كنت بذلتُ كل مافي وسعي لأجل إنقاذه وإنقاذ زعماء السوريين الذين ساقهم جمال الى المشنقة برأيه الافين لامر يريده الله ، وتكلمت مع أنور عندما زار سورية خفية عن جمال ، واغضب ذلك جمالا ، ولم أبال غضبه ، وسعيت لدى قنصل المانية في دمشق سعياً حثيثاً بعد أن استحلفته على كتمان السر حتى يبرق إلى سفارة المانية في الآستانة لعلها تتوسط في الامر وتكفي الدولة شر الشقاق بين العرب والترك ... ولابد أن تكون الاوراق المحفوظة في سفارة المانية بالاستانة تشتمل على ما أفضيت به الى قنصلهم بدمشق ... الى ان يقول :

أما السيد رشيد فكان الاتراك دعوه الى التفاهم معهم وان يتولى منصباً شرعياً في الاستانة فخاف أن يكون ذلك استدراجاً وأبى قبول دعوتهم ولم يقع في الخطإ الذي وقع فيه الزهراوي عفا الله عنه .

لقد كان الامير شكيب من أشرف من كان حول جمال من رجال العرب دفع الله به كثيراً من الشر والاذى ، وما كان يدافع عن الدولة العثمانية الا دفاعاً عن العروبة والاسلام وخوفاً عليهما من مثل الانتداب والحماية والاستعمار وكان شبان العرب وأعضاء المنتدى الادبي في الاستانة لا يرضون عن هذه السياسة الشكيبية وهي سياسة اسلامية خالصة ، بل كنا نعدها انتصاراً للترك على العرب ، ولكنه كان مخلصاً في عقيدته ومشفقاً من الاستعمار على عروبته ، ولا أزال ذاكراً زيارتي له في الفندق مع الشهيدين عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى وسيف الدين الخطيب وقد قلنا له : ان العرب لا يطلبون سوى الاصلاح شيئاً ، وهل في طلبه عداء للترك او خلاف ، فأجابنا : ان هذا الطلب ، والدولة في جهاد واعداؤها بالمرصاد ، ليس شيئاً من النجدة والانصاف ، وقد أعرب في هذه السيرة عن فكرته هذه بقوله ص ١٥١ : « اذ كنت ممن لا يجيز المضي في الاختلافات الداخلية الى ذلك الحد الاقصى حينما يكون البلقانيون على أبواب الآستانة عاصمة الإسلام »

سوءة مأثورة للامير شكيب العربي واخلاص منه لامة لا تبادله هذا الاخلاص ، ولو بقي العرب مع الترك يسفكون دماءهم الى آخر الحرب لما كان نصيبهم في هذه الايام غير نصيب الاكراد ، ولما كان لعمري جزاؤهم على ما أبلوه من البلاء الحسن غير التتريك والالحاد .

وقد جمع الله العرب أخيراً على معرفة هذه الحقيقة ، فإن الامير أمتع الله ببركات حياته يقول في حاشية له ص ٤٣٦ ما نصه : « بعد ان رأيت ما رأيت من هدم أنقرة للاسلام اقتنعت بأن خطر الافرنج على العرب أصبح أهون من خطر ملاحدة الترك . »

وقد علق الامير على هذه السيرة حواشي مفيدة سيرية وتاريخية وسياسية

ولغوية وأدبية تذكّر بحواشي حاضر العالم الاسلامي التي فضلت متنها ، والحلة لا تحلى في العين مالم تستكمل حاشيتها وردنها ، ومن أين لي أن أحصي ما أفدته من مطالعة هذه السيرة المباركة ، لولا بعض هفوات من الطبع قلما خلا منها كتاب طبع في الشرق ، وقد تحدث والمطبعة دائرة كنقص بعض الحروف مثال ذلك ص ٤٣٤ حماه بالهاء وهي بالتاء المثناة ، أو كزيادتها نحو (فضله) ص ٤٣٩ في (فصّله) بالصاد المهملة ، وجاء في حاشية ص ٣٤٥ س ٧ (واقتصر صاحب المصباح) ولعل تتمة القول (على الدعارة) ، وفي الصفحة عينها و س ١٦ : القصية والصواب القصيا ، وأثوب به أثاوة وإثابة ، والصواب بالتاء المثناة في الالفاظ الثلاثة كما في لسان العرب ٠

وجاء في صفحة ٤٤٣ : فتصل العجم غيرة الملك ولعله عين الملك ، وفي السطر الثالث من حاشية ص ٤٤٨ اللحي وصوابه اللخمي ، وفي ص ٤٨٩ : لكل مجتهد أجر إن أخطأ وأجر إن أصاب ، والصواب وأجران إن أصاب ، وفي ص ٤٩٣ : يحضّون نار الشقاق ، والصواب يحضئون ، وفي ص ٥٨٠ : ما يناسب المعركة العجيبة الذي ذكرتموه ، والصواب التي ذكرتموها ٠ وقد نشرنا هذه الهفوات قبل أن تطبع المطبعة فهرس التصويبات ولعلها تكون فيها ، فبارك الله بأمير البيان مؤلف هذه السيرة الطيبة ، وأعز به دولتي العرب والادب معاً ؟

التنوخي

ابن سينا

للأستاذ جميل صليبا

١٥٠ ص متوسطة — مطبعة ابن زيدون بدمشق

هذه هي الحلقة الخامسة من السلسلة الفلسفية التي يعنى بنشرها مكتب النشر العربي بدمشق الذي أثنينا في مجلتنا [1] على همة رجاله الثلاثة ونشاطهم في نشر عيون الآثار ، والحلقات الأربعة المتقدمة على هذه الحلقة هي : ابن خلدون والغزالي وابن طفيل للدكتورين جميل صليبا وكامل عياد ، والرابعة من افلاطون الى ابن سينا ، والخامسة ابن سينا التي نكتب عنها هذه الكلمة ، وكلتاهما للدكتور جميل صليبا رئيس التعليم الثانوي ومفتشه في وزارة المعارف ·

الأستاذ جميل صليبا الحكيم « الدكتور » في الفلسفة من أفضل من أكمل تحصيله في مدارس الغرب محافظةً على قوميته وغيرةً على درس رجال سلفه الصالح ، ولم يكتف بمصطلحات الفلسفة في الفرنسية أو بما نشر في تعريبها في العربية والتركية ، فعكف على مطالعة كتب السلف في الفلسفة وفي علمي الكلام والتصوف ، وهما العلمان العربيان اللذان حضنا الفلسفة ، منقباً عما وضع علماؤنا من المصطلحات ومختاراً منها ما يدل تمام الدلالة على المعاني الفلسفية الحديثة ، ولذلك جاءت ترجماته ومؤلفاته في حلة عربية قشيبة لا تشوبها عجمة ، ولا تخفيها ظلمة ، لصحة تعبيرها وتوضيحها وتنويرها ·

لا يكتب الاستاذ صليبا الا بعد أن يدرس ويحيط بموضوعه تحليلاً وتنقيباً او بعبارة أوضح بعد أن يفهم ما يدرس ويتمثله جيداً ، ولذلك يجيء ما يكتبه صحيحاً في معناه ومبناه ، فان ظلمة التعبير أثر من ظلمة التفكير ، وبحثه هذا عن « ابن سينا » دلالة واضحة على ذلك ·

بدأ رسالته بتوطئة عامة ذكر فيها ابن سينا وانه لم يشتهر عند الاوروبيين

---

(١) انظر المجلد ١٤ صفحة ١٥٩

بشرح مذهب أرسطو اشتهار ابن رشد ، غير أن قيمته عند فلاسفة الإشراق أعظم من أن توصف ، وأن كتبه الطبية قد ترجمت الى اللغة اللاتينية كما ترجمت كتبه الفلسفية ، وبحث عمن عني من علماء أوروبة بفلسفته كغليوم الافريني والقديس توما دكينو وروجه باكون ، ثم بين المؤلف الفوارق بين الفلسفة الرشدية وفلسفة ابن سينا والفارابي وان فلسفتها مستمدة من الفلسفة الافلاطونية ، واستشهد المؤلف على احكامه الصحيحة بشواهد اقتبسها في الحواشي من كتب فلاسفة العرب كتهافت التهافت والشفاء ومنطق المشرقيين .

وابحاث الكتاب ممتعة تجلو كثيراً من غوامض ابن سينا حتى تكاد تمثل لك صورته بكثير من الوضوح ، كأبحاث حياته وآثاره وفلسفته ومصادرها العربية والاعجمية ، ومنها بحثه عن منطق ابن سينا في كتابه منطق المشرقيين وعن رأيه في النفس مستخرجاً من كتبه الثلاثة النجاة والشفاء والاشارات .

وختم الحكيم جميل صليبا كتابه هذا ببحث (الاخلاق والتصوف في نظر ابن سينا) فبحث عن العناية واللذة في إدارك الكمال ولذة العارفين ومقاماتهم ورياضة المريد والوصول وصفات العارف الى غير ذلك من الرقائق واللطائف ، فجزاه الله عن فلسفة أمته العربية خيراً ، فقد كشف عن سرها وقدرها حق قدرها .

التنوخي

***

ديوان البراعم

٢١٥ صفحة ، بالمطبعة العلمية بحلب

الاستاذ عمر يحيى شاعر حماة انسان نبيل يمتاز بصفات سامية فهو كريم النفس مخلص في الود ، رقيق الحاشية ، دقيق الشعور ، تشجيه الكلمة الطيبة ، ويرقصه المعنى الجميل

اما علمه بالمكتبة الادبية فجد عظيم ، وما حفظه من دررها نظماً ونثراً اعظم ، قرأ كثيراً ، وحفظ كثيراً ، فلذلك ترى في شعره مسحة لا تراها في شعراء هذا الجيل فهو جزل ، متخير الالفاظ ، له قوة جعلت بعض من يدرسون شعره ينقدونه ويحملون عليه ، وهذا في رأيي ما كان ينبغي ان يبكر هذا الشاعر من اجله ، فما احوجنا نحن الآن الى شعراء يحيون الاسلوب الجزل وينهجون نهج شاعر النيل حافظ — بل الله ثراه — في احياء اللغة الحرة الصحيحة وطرد الالفاظ السمجة والتراكيب الدخيلة المبتذلة .

واما معاني عمر فمنها العادي المطروق ومنها الثمين السامي ومن ارق شعره واسماه قوله في وداع غرناطة على لسان آخر ملوكها ابي عبد الله الصغير :

أطل المليك غداة الجلاء على مجده والاماني الغرر
وراح بقلب في افقه الحبيـ ـب مجوناً تسيل الدرر
فراق ولا كفراق الشباب وشجو يذوب لديه الحجر
يمد الى الدار كف الوداع ويبكي فتبكي عليه الزمر
ليالٍ نقضت عليها النعيم يرف رفيف الخزامى سحر
وشوق مقيم اليها وأنى تعود اصائلها والبكر
هنا السرو فوق قبور الجدود وتبدو هناك مغاني السمر
وشنيل يجري حزين الخرير كأن الزمان به قد أضر
على ضفتيه جنان الخلود وفي حافتيه نعيم النظر
غياض تضوع ريحانها وأزهر فيها ضياء القمر
عجبت لقلبي كيف انثنى معي ولعقلي كيف استقر
امنت الزمان وحدثانه ففاز العدو وأعيا الظفر
فلا تحقرن عدواً رماك وإن كان في ساعديه قصر

ومن شعره الرقيق قوله في الناعورة وانينها ، وقد تفنن في ذلك كثيراً . وله شعر قومي قوي ينطق بما لعمر من متانة في عقيدته الوطنية وليس ادل على ذلك من قصيدته في فيصل وصالح قنباز ونكبة فلسطين .

اسعد طلس